تفسير سورة الأنعام

الدكتور طه جابر العلواني

القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. (٢٠١٣)

قرطبة للبحوث والدراسات والتنمية البشرية

٢٦ ب ش الجزيرة الوسطى، الزمالك، القاهرة

www.alwani.net

taha.alwani@gmail.com

فهرس الموضوعات

إهداء .....

شكر وثناء.....

مقدمة في تفسير القرآن بالقرآن.....

بين يدي السورة .....

تفسير تفصيلي للسورة.....

- النجم الأول: في البدء بالحمد.. وقصة الخلق (الآيات: ١-٦).....
- النجم الثاني فيي إثبات صدق وصحة وإعجاز مصدر الرسالة، ورد سائر الشبهات عنه (الآيات:٧-٣٧).....
- النجم الثالث في بيان جانب من جوانب الخلق الداعية للتفكُّر (الآيات: ٣٨-٤٧).....
- النجم الرابع: في بيان ماهية الرسل، وتوجيههم في التعامل مع أقوامهم (الآيات: ٤٨-٥٨)..
- النجم الخامس في تفرّده تعالى بالعلم والقدرة (في بيان جانب من جوانب علمه وقدرته تعالى (الآيات: ٥٩- ٦٧).....
- النجم السادس في بيان أحوال المستهزئين (الآيات: ٦٨-٧٣).....
- النجم السابع في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وحجّة التوحيد (الآيات: ٧٤-٩٠).....
- النجم الثامن في بيان أنّ الوحي حق (الآيات: ٩١-٩٤).....

- النجم التاسع في تفصيل الألوهيّة والربوبيّة والاستدلال عليها بدليل الخلق ودليل العناية (الآيات: ٩٥-١٠٥).....
- النجم العاشر: في بيان كذب دعاوى المشركين، وتوجيه التعامل معهم (الآيات: ١٠٦-١١٧).....
- النجم الحادي عشر في بيان أحكام الأطعمة والذبائح (الآيات: ١١٨-١٢١).....
- النجم الثاني عشر: عودٌ إلى بيان قدرة الله الداعية للتفكّر وإخلاص الوجه له (الآيات: ١٢٢-١٣٥).....
- النجم الثالث عشر في بيان ضلالات المشركين وتجرؤهم على تحكيم أنفسهم من دون الله في الحلال والحرام (الآيات: ١٣٦-١٤٠).....
- النجم الرابع عشر في بيان نِعَم وأصناف الأنعام التي امتنّ الله تعالى بها على عباده (الآيات: ١٤١-١٤٧).....
- النجم الخامس عشر في الدعوة إلى الإيمان بحجّة الله البالغة (الآيات: ١٤٩-١٥٣).....
- النجم السادس عشر في إنزال الكتب وعاقبة الإيمان أو الكفر بها (الآيات: ١٥٤-١٥٩)....
- النجم السابع عشر: خاتمة تأكيديّة لما مر من قضايا إثبات الرسالة والألوهيّة ودحض دعاوى المشركين (الآيات: ١٦٠-١٦٥).....

إهداء

إلى أولئك الباحثين عن قبسات النور في دياجير الظلام..

إلى أولئك الباحثين عن الحق الذي التبس بكثيرٍ من الباطل، فاشتدت حاجتهم إلى الدليل الذي يرشدهم إلى الصراط المستقيم..

إلى أولئك الذين يريدون الوصول إلى الهدى من ينابيعه الصافية.. نقدّم هذا الجهد المتواضع الذي اعتمدنا فيه بقدر ما استطعنا منهج تفسير القرآن بالقرآن لكي لا تقف بينهم وبين أنوار القرآن وبصائر آياته حجب، ولكي يتمكّنوا بعد ذلك من تلاوة القرآن حق تلاوته.

إلى أولئك جميعًا نقدّم هذه الباكورة في تفسير القرآن بالقرآن ليكون دليلاً مرشدًا في الاعتماد على القرآن وتلاوته وتدبّره دون وسائط تحجب أنواره عن قارئيه، سائلين العلي القدير أن يجعله عملاً مبرورًا مقبولاً، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يكون وسيلتنا جميعًا لنيل هداية القرآن وأنواره وشفاعته.

شكر وثناء

أما وقد انتهى ما منّ الله علينا في به في بناء الحلقة الأولى من سلسلة تفسير القرآن بالقرآن فلابد لي من ذكر مَن شجّعوني وأعانوني على هذه الخطوة المباركة. لقد كانت في أوائل المشجّعين ابنتاي زينب ورقيّة وأسرة مكتبي الصغير في القاهرة، وأخص بالذكر الباحثة نجاح نادي التي بذلت جهدًا كبيرًا في جمع كثيرٍ من المادة العلميّة، كما ساعدت في التنسيق والتصنيف والتبويب، وبقيت على متابعة مستمرة حتى بلغ العمل هذه الغاية فجزاها الله خيرًا ووفقها لما يحب ويرضى. كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذة خديجة جعفر_ الباحثة في الفلسفة الإسلامية_ التي قامت بتحرير الكتاب وإخراجه في صورته النهائية هذه، فبارك الله فيها، وأكثر منأمثالها في الباحثين الشباب أساتذة المستقبل إن شاء الله.

كذلك أتوجّه بالشكر للسيدة نبيلة، والسيدة سعاد، والشيخ ربيع مرزوق لتشجيعهم ودعمهم المعنوي، والأستاذ زكريا العقيلي الذي تفضّل بقراءة مسودة العمل واقتراح بعض التعديلات والتصحيحات، وآخرون إذا نسيتهم فالله لا ينساهم، وثوابه أجدى أن يجزي الجميع خير الجزاء، وأن يجعل من هذا العمل نموذجًا لا يستغنى عنه المبتدؤون، ولا يزهد في الاطلاع عليه الجهابذة والعارفون.

مقدمة في تفسير القرآن بالقرآن:

إنّ القرآن العظيم كتاب الله، أنزله على قلب مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلّم- عبده ورسوله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فصّله الله على علمه الذي أحاط بكل شيء وهيمن على كل شأن، وجعله الكتاب الخاتم لكل ما سبق، وأنزله على خاتم النبيّين والمرسلين ليُحيط بكل جوانب رسالاتهم وما جاءوا به من معتقدات، وليكون الحافظ الأمين للأساسيّات المشتركة بين النبيّين، بحيث نجد فيه حنيفيّة إبراهيم، وصحف وتوراة موسى وألواحه، وإنجيل عيسى وما أنزل الله فيه.

وقد وصف الله -سبحانه وتعالى- كتابه الكريم بأوصاف كثيرة تقارب الأربعين وصفًا، فهو «نور مبين» و«كتاب حكيم» و«صراط مستقيم»، يهدي للتي هي أقوم ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد. وما أكثر الأحاديث التي وصفت القرآن ودارت حول الآيات التي وصف القرآن الكريم نفسه بها. وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب -عليه السلام- في أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذي[1] في جامعه، من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب علي -عليه السلام- قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليّ -عليه السلام- فأخبرته، فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أَمَا إنِّي سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يقول: **"ألا إنَّها ستكون فتنة"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط**

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: (١٧٢/٥) وفي الطبعات التي رقمت فيها الأحاديث رقمه (٢٩٠٨) في باب "فضل القرآن" وقد استدل به صاحب "إيثار الحق..." في كتابه "ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان" ص١٥ ط. دار الكتب العلمَّية بدون تاريخ.

المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنتهِ الجنّ –إذ سمعته– حتى قالوا: إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد، فآمنا به. مَنْ قال به صدق، ومَنْ عمل به أُجِرَ، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم". انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد الإمام أبو طالب –عليه السلام– في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل –رضي الله عنه–(٢)، عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– (٣). قال: ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقًّى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول.

---

(٢) ما رواه معاذ عن عليّ جاء في (مجمع الزوائد: ١٦٤/٧).

(٣) والمروي بطريق عمر تجده في "جامع الأصول: الحديث رقم (٦٢٣٢)، لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر ﷺ وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناؤوط معلقاً "كذا في الأصل – أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب" ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: "...نزل جبريل عليه السلام على عهد رسول الله ﷺ فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): "فما المخرج منها يا جبريل؟" قال: كتاب الله... الخ وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (٥٢٣/٢) برقم (٣٣١٥) عن عبد الله وبدأه بقوله: "إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..." وختمه بقوله: فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته..."."وأما باللفظ الذي معنا فقد أورده الدارميّ في الحديث رقم (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: "رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ١٧٢/٥-١٧٣. وأحمد في المسند (٩١/١). وأبو داود الطاليسي وأبو بكر الأنباري في كتاب "الرد" له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي ص٤٨ بتحقيقي. قال ابن كثير في فضائل القرآن, ص١١-١٢: "لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة في عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود ﷺ" أ.هـ. والآية رقم٢ من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت "فتنة الحديث أو الأحاديث" بأنها الافتتان برواية"الأحاديث" أو "السنن" عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهي عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه): ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجّة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأية حجة أخرى.

وقد أودع الله –سبحانه وتعالى– كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسُبل هدايته، فحمدًا له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا –سبحانه وتعالى– بكتابه عمّا سواه، وكفانا به عمّا عداه: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (العنكبوت:٥١)، فنسأله –سبحانه وتعالى– –كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم –صلى الله عليه وآله وسلّم– أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلّمنا منه ما جهلنا، ويُذكّرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا لا علينا، وقائدًا لنا إلى الجنَّة، إنّه سميع مجيب. هذا القرآن المجيد قد يسّره الله –سبحانه وتعالى– بفضله ورحمته للذكر، وجعله في متناول العقول والقلوب عندما تتطهّر، بحيث تمس عقول وقلوب أولئك المتطهّرين. وفي الوقت نفسه تحدّى البشر به، وثبت عجزهم وعجز الجنّ معهم وسائر مَنْ خلق الله عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. ومع التحدي والتيسير جعل الله له حافظًا من داخله، يحرسه من أيّ تغيير أو تبديل أو تحريف، وذلك نظمه الداخلي. فنظم القرآن هو حافظه وحارسه الأمين و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها –كلّها– في وقت واحد. نذكر دعامة من هذه الدعائم،

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، ففي عصر الصحابة خاصة – عصر الشيخين– لم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر والياً سنة (٨٣ هـ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهاً بديلاً عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخيُّ الحنفي لنفسه أن يقول: "كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة".

"أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ" !! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جرئ يدل على أن التعصُّب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضِيّاً بحيث صار الأصل تابعاً للفرع، بل محكوماً به. ولذلك فإن إعادة بناء الأمّة واستئناف شهودها الحضاريّ وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدراً منشئاً وكاشفاً عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحمن الرحيم ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٨). وما اختلف فيه أو عليه لابد فيه من الرجوع إلى السنّة النبويّة التي صدرت عن رسول الله ﷺ ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ (النحل: ٦٤).

وعلى هذا فالمعنى الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنَّة. والله أعلم.

هي وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع، يقول الإمام الرازي: "إنّ القرآن كما إنّه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، هو أيضًا معجز بسبب ترتيبه ونظم معانيه". ولعل الذين قالوا: "إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"[٤]، فآيات القرآن الكريم المكنون والعبارات والجمل التي يشتمل عليها لها مستويات متعدّدة من الدلالة[٥]. فلها دلالة بحسب الوضع اللغوي وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيه الكلام العربي كله، ولها دلالة صيغ بلاغيّة، وهي على مستويات عُليا ووجوه كثيرة، فكلام سيّد البلغاء المتقنين رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– –وهو «**أفصح مَنْ نطق بالضاد**»– ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته –نحو الإمام علي –عليه السلام– قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنيّة وفصاحتها، لكنّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة، كما في «**الدلالات المكنونة**» أو المطويّة. فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزله سبحانه بأنّه: ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ (الواقعة:٧٨). ففي ثنايا النّص وفضاء الآية يعثر المتدبّرون الغوّاصون على اللآلئ والجواهر عديمة النظير، وتتكشّف مكنوناته كذلك عبر العصور، بحيث تبدو كأنّها لم تنزل إلا في تلك الفترة، وعلى أهل ذلك العصر، وهذه الدلالة ذات مستويات متعددة كذلك، فمنها: دلالة ما يذكر على ما يقدّر، مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة، وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير. ومنها: دلالة السياق[٦]، وذلك مستوى يدرَك من

(٤) في كتابه البلاغي المطبوع عدة طبعات: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" القاهرة: الآداب والمؤيد.

(٥) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم في الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسني النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة في هذا المجال . أما سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

(٦) السياق أمر ذو أهمية بالغة، حيث يعد "السياق" في القرآن المجيد هو المنتج للدلالة، والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق فالسياق –عندهم– يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. و"الإضافية" تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجوده فكره وقريحته وصفاء

التدبر في مواقع الجُمَل من الآيات، والآيات من السور، والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر المناسبة، وتتحدّد صفة الجملة وهويّتها في معرفة ما إذا كانت جوابًا عن سؤال، أو تعليلًا لمضمون كلام سابق، أو أنّها وردت في موقع الاستدراك، أو في موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال فإنّ هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أي مستوى من مستويات دلالاتها الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ وذلك هو الإطلاق الذي يتفرّد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكلّ ما عداه داخل في دوائر النسبيّة، أمّا هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون.

وقد تكفل الله سبحانه بحفظ القرآن لفظًا ومعنىً. قال تعالى: -: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ (فصلت:٤٢) وقد دلّت الآيات المحكمات بسائر أنواع الدلالة على حفظ القرآن لفظًا. وقد تضافر النظم مع الوحدة البنائية للقرآن، بالإضافة إلى وسائل أخرى ظاهرة وكامنة فيه على نفي الباطل عن القرآن، وعصمته في لفظه وحفظه في معانيه.

والقرآن الكريم يستوعب الوجود وعلاقاته وسائر عناصره. وهذا ما يجعل عملية استجلاء معاني القرآن باستقراء تام أمرًا قد تنوء به العصبة من العلماء. فالقرآن _مع مزاياه وخصائصه وصفات الكمال فيه وحسن نظمه، وسموّ بلاغته، وعلوّ فصاحته، وتيسير الله سبحانه وتعالى له، يبقى في حالة من السموّ تجعل عملية استجلاء معانيه بشكل قريب من الكمال عمليةً تحتاج -أول ما تحتاج- إلى إدامة الصلة بهذا القرآن الكريم، وبناء اللاحقين من أبناء الأمّة على ما أسّس السابقون، واعتبار عمليّات تفسيره

ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك.." راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤-١٠) وإعلام الموقعين (١/٣٥٠-٣٥١) وقد أوردت ابنتنا د.رقية العلواني تفاصيل هامة في "دلالة السياق" وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته فراجع ذلك في رسالتها القيمة "أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة نموذجاً" رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م, ص٢٦٠—٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان "دلالة السياق في القرآن" لم تطبع طبعة عامة بعد . أما السباق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

وتأويله واستجلاء معانيه، والتطهر للوصول إليها شغل المسلمين الشاغل عبر العصور في مختلف الأجيال. ولا يُنكر أنّ علماء المسلمين قد بذلوا الكثير في هذا الصدد، وشمّر الكثيرون منهم عن سواعد الجِدّ، وبذلوا جهودًا متتابعة في التفسير والتأويل، وبيان أوجه بلاغة القرآن وفصاحته وتحدّيه وإعجازه، ولم تبذل أمة أخرى جهودًا في دراسة ما أنزل الله إليها من كتب أو صحف. ولكن هذا القرآن كتاب مطلق كوني معادل للكون وحركته مستوعِب لهما، لا يُحيط به تفسير ولا تأويل –ولو تضافرت عليهما الجهود– بل يُحيط الله وحده –سبحانه وتعالى– به، فهو الذي فصّله على علمه، وبيّن في محكم آياته ما اختلف الناس فيه، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

لقد ورثنا –نحن المسلمين– كتابات فى التفسير تجاوزت كل ما ورثناه فى العلوم الأخرى من حيث العدد والاتجاهات، واتخذت اتجاهات التفسير لدى أمّتنا –بدءًا من جيل التلقّي ثم الأجيال التى جاءت بعد ذلك الجيل المبارك– اتجاهات عديدة، فكان منها «**التفسير اللغوي**»، ثم «**التفسير الآثاري**» القائم على روايات آثار عمليّة وقوليّة ذات علاقة بالآيات المفسّرة، ثم «**التفسير الفقهي**» الذى يركّز المفسِّر فيه على معرفة أحكام القرآن أو الأحكام التى وردت فى آيات القرآن الكريم. برزت بعد ذلك أنواع أخرى من التفسير، مثل «**التفسير الإشاري**» الذى عني به بعض الصوفيّة، و«**التفسير العقلي**»، و«**التفسير البلاغي**»، ثم «**البياني**»، ثم برز فى عصرنا هذا ما سُمّي بـ«**التفسير العلمي**»، وربما أضاف بعضهم «**التفسير العددي**»، و«**التفسير الفلسفي**» وما إلى ذلك. وحين حاولنا إجلاء هذا التراث التفسيري المتنوّع بمعرفة ما قدّمه للقرآن الكريم وللمخاطبين به –وهم البشريّة كلّها– وجدنا أنّ هذا التراث –على اتساعه وتنوّعه وكثرة فوائده– لم ينجح فى استجلاء معاني القرآن الكريم، وبقي فى هذا الكتاب الخالد كثير من العوالم التى قد يشعر الإنسان بأنّه لو خُلي بينه وبين القرآن، يراجعه ويسائله ويتدبّر فيه ويتذكّر ويتعقّل لاستفاد من معانيه وتجلّياته وما فيه من نور وهداية أكثر بكثير مما استفاده من تدخّلات

المفسّرين، ولا نتردد في أن نقول إنّ بعض التفاسير قد وقفت حاجزًا بين القرآن والقرّاء، وربما حرمت بعضُ التفاسير القرّاءَ من حسن استجلاء معاني القرآن العظيم ومحاولة التدبّر فيها وتعقّلها وتذكّرها.

من هنا بدأت رحلتنا مع تدبّر القرآن، ومحاولة فهمه من داخله واستجلاء أنواره من ثنايا آياته، والتّعرّض لأنواره ونفحاته من داخله، فوجدنا في ذلك خيرًا كثيرًا، ونعمًا لا تُحصى، تجعل القارئ المتدبّر -إذا أحسن التدبّر ومرن عليه- أكثر وعيًا بالقرآن وفهمًا لسياقاته وإدراكًا لمعانيه واعتبارًا بقصصه وأمثاله، وأقرب إلى الصواب في إدراك مقاصده وغاياته؛ ولذلك فقد رأينا تخصيص هذه المقدمة لمعالجة هذا النوع من التفسير، وشرح وبيان المنهج النبوي القويم في الأخذ به والنسج على منواله، سائلين العليّ القدير أن يُوفّقنا ويُعيننا على بلوغ هذه الغايات السامية الشريفة، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يُنير به بصائرنا، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

إنّ القرآن الكريم قد بدأ اتّصاله برسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وبالأرض بالأمر بالقراءة، فكانت أوّل كلماته أمرًا بالقراءة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق:١-٥)، ففي هذه الآيات الخمس -الأولى نزولًا من الكتاب الكريم- أمرٌ بقراءتين و في هذا تنبيهٌ إلى أنّ تنزيله سوف يتكامل ليصبح كتابًا كاملًا تامًّا، مصدّقًا لما بين يديه، ومهيمنًا عليه، ومشتملًا على تراث النبوّات كلها، وحاملًا لهدايات الأنبياء والمرسلين جميعًا.

إنّ كل قراءةٍ من القراءتين لها خصائصها التي تستمدّها من صلة الموصول. فالقراءة الأولى في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، قراءةٌ يستعين الإنسان في ممارستها باسم الله «**الخالق**»، والخلق بالنسبة لهذا الإنسان المتلقّي لهذا القول الثقيل يبدأ من علق: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾، و العلق قطعة من الدم ثم تطوّرت. أمّا القراءة الثانية فهي قراءة بالقلم:﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ**

بِالْقَلَمِ﴾ (العلق:٣،٤). وذكر «**القلم**» هنا في صلة الموصول «الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم» تربط بين القراءة –قراءة القرآن الكريم والقلم– وجميع القراءات التي تراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى بداية عصر التنزيل، فهي قراءة بالخلق وقراءة بمتراكم المعرفة، وقراءة بالوحي النازل، ممّا يُشير إلى أنّ القرآن يُعَلِّمُ منذ البداية الجمعَ بين قراءتين أو أكثر من قراءتين؛ لكي يحقق أهدافه أهداف التنزيل.

ثم تتالت وتتابعت أنواع القراءات بعد ذلك. فهناك: قراءةٌ يَعْمِدُ المتعبّدون الذين يبتغون ثواب الله – تبارك وتعالى– بالقراءة إلى القيام بها. هذا الثواب الذي وعد رسول الله –صلّى الله عليه وآله وسلّم– به: "اتلوه فإنّ الله يأجركم بكل حرفٍ عشرة، لا أقول ﴿**آلم**﴾ حرف، ولكن «**ألف**» حرف و«**لامٌ**» حرف و«**ميمٌ**» حرف"[٧]. وهناك قراءةٌ أخرى: هي قراءةُ الذين يريدون معرفة الحلال والحرام وشريعة القرآن الكريم، فهي قراءة تتّسم بالبحث عن الشريعة وعن الآيات التي تحمل تشريعات إلهيّة من أمر ونهي ووصيةٍ وما إلى ذلك. وهناك قراءة ثالثة، هي قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشريّة وتطوّرها ومسيرةَ البشريّة عبر التاريخ، منذ بدء الخليقة حتى أيام رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم–؛ رغبةً في معرفة ذلك التاريخ والاعتبار به، واستنباط دروسه وعبره. وهناك قراءة رابعة، هي قراءة مَنْ يقرأ ليستمْتع بدقّة اللفظ وجمال الأسلوب وبلاغة القرآن الكريم؛ ولكي يرى جوانب تحدّيه ووجوه إعجازه للبشريّة عن أن تأتي بمثله. وهناك قراءةٌ خامسة هي قراءة من يحاول أن يطّلع على قصص الأنبياء، ومعرفة أقوامهم وأحداث أزمانهم ومضامين رسالاتهم. وهناك قراءةٌ سادسة، تحاول أن ترى ما إذا كان هذا القرآن

---

[٧] نص الحديث كما ورد في صحيح الترمذي وغيره: «عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».
مُحَمَّد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي (دار إحياء التراث العربي: بيروت) (٥/ ١٧٥) تحقيق أحمد محمود شاكر وآخرون.

يستشرف المستقبل، ويُعطي مؤشرات له، ويوضِّح مصير الإنسان ومصير البشرية، إلى غير ذلك من قراءات كثيرة تكاد تشمل جوانب القرآن الكريم المختلفة. وهناك أناس درجوا على إثارة أسئلة؛ بعضها في الفلك، وبعضها في التاريخ، وبعضها عن الحاضر والمستقبل، وغير ذلك من أجل أن ينزل الجواب على أسئلتهم تلك وَحْيًا، بحيث يكون لديهم جواب تطمئن إليه النفوس، وينشرح له القلب.

هذه القراءات المتعدّدة المتنوعة هي التي بدأ الفكر الإسلاميّ يتكون في بداياته بها وحولها. فلم يكن للعرب قبل القرآن علوم ومعارف متطورة، فقد كان العرب أمَّة من الأمِّيين، والأميُّون كلمة لها معنيان؛ فالمعنى الأول: أي الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهذا ليس مرادًا هنا؛ لأنّه من المعروف أنّ بيئة قريش بيئةٌ تجارية، وكان فيها شيءٌ من القراءة وشيء من الكتابة، شأنها شأن البيئات التجارية، كما أنَّ هناك ما يدل على أنَّ العرب كانت لهم كتابات في تلك المرحلة[٨]. أمّا المعنى الثاني للأميّ أو الأميين: هم الذين لم ينزل عليهم كتاب من قبل، وانقطعت الصلة أو لم تقم صلة بينهم وبين الوحي الإلهيّ في وقت منظور. والعرب –وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل هود وصالح– قد بَعُدت الشُّقَّة بينهم وبين هؤلاء الأنبياء والمرسلين، فعادوا إلى أميَّتهم؛ ولذلك سموا بالغافلين في بعض الآيات: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (السجدة:٣)، وقد نُسيت كل تلك الرسالات، وفَصلت بينهم وبينها دهور. كأنّهم لم يأتهم نبي أو رسول من قبل، فهم من الشعوب الأميّة بهذا المعنى؛ أي التي لم تتلقَّ رسالةً سماويّة. ومن هنا تطلّعت وتشوّقت نفوسهم إلى رسالة: ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ** ﴾ (الأنعام:١٥٧)، أي وهم ينظرون إلى اليهود والنصارى من حولهم وكانوا يتشوقون إلى نزول شيءٍ أو خطابٍ إليهم.

---

[٨] ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي تعرّضت لوضع الأعراب وعرب الجاهليّة وقبائلهم المختلفة في عصر التنزيل، منها «**المفصَّل في أحوال العرب**» لابن يعيش، ومنها «**بلوغ الأرب في أحوال العرب**» للآلوسي، ومنها «**عصر النبي وبيئته قبل البعثة**» لمحمد عزة دَرْوَزَة، إلى مصادر أخرى كثيرة تحدثت عن تلك الفترة.

وبسبب كون العرب أميّين لم ينزل عليهم وحي قبل القرآن، فقد لمّا أنزل القرآن الكريم بدأت تتكون أفكارهم ومعارفهم وعلومهم من تفاعلهم مع القرآن. ممّا جعل ابن عبد البر أو سواه يقولون: "العلم: قال الله، قال رسوله"، فالعرب قبل نزول القرآن، كأنّهم لم يمارسوا أيَّة عمليّات تعليميّة أو معرفيّة؛ ولذلك كان القرآن بالنّسبة لهم هو المصدر المنشئ لأفكارهم ولآرائهم ولتصوّراتهم ولمعارفهم ولعلومهم، وحوله تكوّنت تلك المعارف التي عرفت فيما بعد بـ«**العلوم الإسلاميّة**»، وعليه نشأ «**الفكر الإسلامي**» أو «**العلوم النقليّة**»، أو التي سُمّيت في بعض المراحل بـ«**العلوم الشرعيّة**»، فهذه العلوم تكوّنت في دوائر تلك القراءات المتعدّدة والمقاربات المتنوّعة للقرآن الكريم حتى أصبحت مجموعةً من المعارف التي بدأ تدوينها الرسمي عام ١٤٣هـ[٩] الذي صار هو تاريخ التدوين الرسمي لتلك المعارف أو لذلك الفكر الذي انبثق عن قراءات المسلمين للقرآن الكريم؛ فهناك تفسير، وعلم عقيدة أو توحيد، وعلم فقه وأصول، وحديث، وعلوم عربيّة. وهذه كلها تقريبًا جَرَت مقاربتها أو عمليّة الوصول إليها بالقراءات أو بالمقاربات الإسلاميّة للقرآن الكريم التي تنوعت وتعددت –كما ذكرت– بتعدد أنواع القراءة، إضافة إلى أنواعها القديمة منها والحديثة. وكلّها كانت ذات ارتباط وثيقٍ بالقارئ نفسه، فللقارئ رؤيته الكليّة وتصوّره ودوافعه ودواعيه ومؤثرات أخرى كثيرة من بيئته وثقافته وحضارته وقدراته ونواياهُ وغاياته وسائر المؤثرات الأخرى، وللقارئ دور كبير في تحديد نوعيّة القراءة التي يقرأ القرآن الكريم بها.

والقراءةَ ذات علاقةٍ وثيقة بالزمان والمكان، فالزمان الذي يقرأ القارئ القرآن فيه، والمكان الذي يقرأ القارئ القرآن به كلاهما له أثره في عمليّة القراءة، واختيار نوعها وكيفيّتها، والحصول على النتائج المتوخّاة منها. وهناك البعد الغيبيّ الإلهيّ الذي يُحيط بالقارئ وبالقراءة وبمنهجها، فإذا صادف القارئ لطفًا من الله –تعالى– وعنايته وتوفيقه فقد يوفّق في قراءته، وقد يصل بهذه القراءة إلى كثير من مكنون القرآن

[٩] على ما أكّد الذهبي وتبعه بعد ذلك السيوطي.

الكريم؛ ولذلك فإنّ الله –تبارك وتعالى– قال: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة:٧٩)، وهنا الآية تُشير إلى عمليّة الوصول إلى المعنى، وليس اللمس الحسّيّ كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء. وإنّما مَسُّ المعنى المكنون والوصول إليه. وقد وضع والله –تبارك وتعالى–كلمة: ﴿**المطهَّرون**﴾ بصيغة اسم المفعول لكي ينبِّه إلى أنَّ عمليّة التطهير تجري من الخارج، يعني المطهَّر هو من طهَّره غيره. ذلك يعني أنّ المطَهَّرين هم أولئك الذين طهّرهم الله –تبارك وتعالى– وهيّأ عقولهم وقلوبهم ووجدانهم للمس معاني القرآن الكريم والوصول إليها. ورسول الله –صلّى الله عليه وآله وسلّم– يقول: "إنّ لربكم في دهركم لنفحات، فتعرّضوا لها»[١٠]، فحينما يقوم القارئ للقرآن الكريم متعرّضًا لنفحات الله –تبارك وتعالى– فإنّ استفادته بقراءته سوف تكون أكثر بكثير من ذلك الذي حُرِم هذه الجوانب أو لم يصادفها.

و قد وصف الله _تبارك وتعالى_ القرآن الكريم بأنَّه هُدى لقوم، ونور وبيان لأقوام، وقد وصفه كذلك بأنَّه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا. وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمه للمؤمنين: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً**﴾ (الإسراء:٨٢). فهذا الخطاب يتنوّع دوره في التأثير بتنوع القارئ وما يتصف به وما يتعرض له من نفحات الله تبارك وتعالى.

و هناك معوقات تحول بين القارئ وبين القراءة، يجب أن يحرصَ القارئ على تلافيها ومنها:

أولًا: «الاختلاف»: فإذا وقع اختلاف بين القارئين للقرآن الكريم وتنازعوا أمرهم، وحاول كلٌّ منهم أن يتّخذ موقفًا ما يستدل عليه. هنا ينصح رسول الله –ﷺ– هؤلاء بأن يتركوا القرآن، وأن يقوموا عنه، حيث إنَّ القرآن في هذه الحالة –حالة الاختلاف والشقاق النّفسي– سوف يحمل القارئين على أن يجعلوا من القرآن مجرد شواهد ووسائل معبرّة عن آرائهم التي اختلفوا فيها وحولها. وسيؤدي ذلك إلى أن

١٠ جلال الدين السيوطي، جامع الأحاديث (٩/ ١٥٣) نقلاً عن: الطبراني في الكبير (٢٣٣/١٩ ، رقم ٥١٩)، والأوسط (١٨٠/٣ ، رقم ٢٨٥٦).

يضربوا القرآن بعضه ببعضٍ بدلًا من أن يقرؤوه في تكامل تامٍ، وفي إطار وحدته البنائيّة؛ ليتعرّضوا لنفحات الله -تبارك وتعالى- فيه.

ثانيًا: «البحث عن شواهد»: من المعوقات أن يمارسَ القارئ القراءة في القرآن الكريم طلبًا لشاهد أو دليل معضّد لموقف يقفه أو رأي يراه. ففي هذه الحالة كذلك، سوف يكون القارئ محجوبًا عن جوانب هامة من أنوار القرآن وأضوائه ووسائل هدايته ومعانيه.

ثالثًا: «الدخول بأحكام مسبقة»: كذلك الدخول بأحكامٍ مسبقة إلى القرآن الكريم يُعدّ من المعوقات التي إن دخل القارئ بها فإنّه لن يكون قادرًا على استجلاء معاني القرآن بشكل سليم. فالقرآن إنّما ينفتح على قارئٍ هو في حاجة إليه، يريد أن يستنطقه ويستثيره لكي ينال من هدايته ومن معانيه ما يسدّد طريقه ويصوّب خطاه، ويعينه على معالجة أزمته. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾ (الضحى:٧)، فالتائه سوف يجد هدايته فيه، ولكن الداخل إليه بأحكام مسبقة سوف يجد نفسه يقرأ بطريقة مَنْ يفرض على القرآن معاني قد لا يحتملها نصُّه ولا يُشير إليها أو يدل عليها خطابه بأيّ وجهٍ من أوجه الدلالة. وهنا يتحوّل القارئ من قارئٍ تالٍ مفتقر إلى ما في القرآن الكريم إلى إنسان يحاول تحميل القرآن ما لا يحتمل.

وهناك مقدمات يجب على القارئ أن يعيها في ولوجه للقرآن الكريم، منها:

أولاً: «موقع القارئ من الخطاب»: يجب أن يحدد القارئ موقعه من الخطاب، ما موقعي أنا؟ هل جئت إلى القرآن الكريم طالبَ هدايةٍ، أم طالب تعبّدٍ أم طالب معرفة حكم أم طالب معرفة سُننٍ إلهيّة أم سُنَنٍ اجتماعيّة أم تاريخ أقوامٍ أم استنباط هداية أم ماذا؟ هذا التحديد مهم جدًّا، ولا بد للقارئ أن يُحدّد موقعه من القرآن الكريم وهو يلج إلى رحابه، ولا بد من أن يُحدّد موقع الخطاب منه؛ ما علاقة القرآن به؟ وهنا يُبيّن إيمانه واحترامه للقرآن ورؤيته له، أُلْفته معه، علاقته به، تصوّره له، مع إيمان تام ويقين كامل بقدرة القرآن المجيد على تزويد القارئ -بكرمه- بما هو بحاجة إليه. فلابدَّ أن يحدّد القارئ هدفه من القراءة بدقة تامة، وهو ما نسمّيه بالنيّة: "إنّما الأعمال بالنيّات". والقراءة عمل، فلا بد من بناء النيّة

والتعرّض للتطهير الإلهيّ. لعلَّ القارئ يصبح واحدًا من أولئك المطهَّرين الذين يستطيعون العروج إلى مسّ معاني القرآن الكريم.

ثانيًا: «تنزيل القراءة على القلب»: تنزيل قراءتنا للقرآن على قلوبنا أمر في غاية الأهميَّة؛ لكي نحصل على ثمرة القراءة، ولنجني فوائدها، فالقراءة بالعينين وتحريك اللّسان دون إشراك فعليّ للقلب لا تؤدي ما تؤدّيه القراءة عندما ينزّل القارئ قراءته على قلبه مباشرة. وهذا النوع من القراءة يقتضي تيقُّظ قوى الوعي الإنسانيّ -كلّها- عند القراءة، وتحتاج إلى تدريب على ذلك، بحيث تفيض القراءة من القلب إلى الجوارح، فيكون القلب هو المستقبل الأول لآيات الكتاب الكريم.

فالقرآن الكريم ليس كتابًا عاديًّا ينزَّل على السمع أو يوضع أمام العين لكي يقلب الإنسان الطرف في كلماته، أو يتصفحه تصفحًا، أو يستمع بقلب لاهٍ أو ساهٍ له، بل لا بد أن ينزَّل على القلب قبل أن ينزّل على اللسان أو ينزل على الأذن في حالة الاستماع، قال تبارك وتعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ*تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ (الشعراء:٢٢١،٢٢٢)، ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (النحل:١٠٢). فالتنزيل على القلب إذًا ليس بالأمر السهل؛ لأنّه يحتاج إلى تدرّب وتطهّر، فليس كل كلامٍ يمكن للإنسان أن ينزّله على قلبه؛ ولذلك نُهي رسول الله -ﷺ- أن يحرك به لسانه: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ**﴾ (القيامة:١٦،١٧)، وأمر -في الوقت نفسه- ونبَّه إلى أنّ التنزيل إنّما يتم على القلب، فالقارئ للقرآن الكريم محتاجٌ أن يُنَزِّلَ القرآن على قلبه، والتنزيل على القلب يستلزم أولًا تطهير القلب وتنقيته من كل ما قد يحول بين القرآن وبين النزول على قلبٍ ممهّدٍ ليّنٍ، إذا نزل عليه زاده إيمانًا وزاده إخباتًا وخشوعًا، قلبًا مخبتًا لا تعرف القسوةُ إليه سبيلًا، والقرآن يزيد ذلك القلب لينًا، كما يلين له الجلد: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ (الزمر:٢٣). وفي الوقت نفسه لا بد من تزكيةِ القلب وتطهيره وإعداده وتهيئته، فكما تُمهد الأرض لإنزال طائرةٍ عليها مثلًا لا بد لك من تمهيد القلب لكي تنزل عليه آيات القرآن الكريم وتوجد بين القلب وبين الكتاب الكريم رابطةً وثيقه لتذكر مُنَزِّلِه والمتكلم به -سبحانه وتعالى- وتذكر متلقيه الأول -عليه الصلاة والسلام- الذي تلقاه وحمله إلى البشريّة.

ثالثًا: «حضارة كلمة وحضارة الصورة»: أمر آخر لا بد للقارئ أن يتنبَّه له ألا وهو أنّ هذا القرآن كلمات الله، فيحتاج القارئ أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله، يقوم على الكلمة. وأنّ الحضارة التي أقامها القرآن الكريم هي **حضارة كلمة** وهي مقابل **حضارة الصورة والتمثال**، والكلمة يستحيل توثينها، وإن وثَّنهابعض الناس، ولكن لا يعني هذا كذلك، أن يتعامل معها تعاملًا عاديًّا كأيَّة كلمةٍ أخرى. فهذه الكلمة الموجودة في القرآن كلمة إلهيّة تقابل الكلمات الإلهيّة الموجودة في الكون التي بها تشيَّأ الكون حين قال الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (النحل:٤٠). وحضارة الكلمة غير حضارة الصورة أو المثال؛ فلحضارة الكلمة خصائصها، وللعقل المنتمي إلى حضارة الكلمة سماتٌ وصفات لا بد للقارئ أن يكون على وَعْيٍ بها ليحسن التعامل مع تلك الكلمات، وكلمات القرآن الكريم ليست كَأَيَّةِ كلمات عربيَّة. وإنَّما هي كلمات على مستوى عالٍ يرتقي إلى مستوى المفاهيم. وذلك للفرق الكبير بين الاستعمال الإلهيّ للّغة والاستعمال البشري لها. فالاستعمال البشريّ للغة قد لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهيّ الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، والذي فصَّل هذا الكتاب على علمه سبحانه وتعالى. فالكلمة القرآنيَّة إذًا كلمةٌ ترتقي لمستوى المفهوم. وعلى القارئ أنْ يدرك الفرق بين الاستعمال الإلهي للكلمة والاستعمال البشري لها. وبالتالي فالقرآن الكريم هو أَوْلَى المِصادر بتعريف كلمات القرآن الكريم نفسه، فالقرآن يجعل من الكلمة الواحدة غرفةً في بناء أو لبنةً في بناء تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملةً من الفوائد وهي في داخل البناء. فَوَعْيُ القَارئ بهذا الأمر وعيٌ له أهميته، وتظهر أهميّتُه في عملية الفهم وفي التعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها «**مفاهيم**»، ومع القرآن الكريم في «وحدته البنائيّة» وفي «كليّاته» و«مقاصده» و«غاياته». أمّا الصورة فلها تناولٌ آخر، ولها طرائق مختلفة في النظر إليها، والتكوين العقلي للمنتمي لحضارة الصورة والتوجّه النفسيُّ مختلفٌ تمامًا عن توجُّه المنتمي لحضارة الكلمة.

رابعًا: «لسان القرآن»: نقطةٌ أخرى لا بد من التنبّه لها، ألا وهي اختلاف «**لسان القرآن**» جملةً عن أيّ لسان آخر بما فيه اللسان العربيّ، وتمتُّع هذا اللسان –لسان القرآن– بمزايا مختلفة. فلسان القرآن الكريم من الصعب جدًّا إخضاعه لأحكام الألسنيّات، خاصةً المعاصرة التي تنطلق من عمليات دراسة

النصوص وتفكيكها وإعادتها إلى كلمات مفكّكة لتيسير تحليلها! وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من مزايا كلمات القرآن الكريم ونَظْمِهِ وأسلوبه وتحدّيه وإعجازه، وأثر الاستعمال الإلهيّ للغة، والفرق بينه وبين الاستعمال البشريّ لهذه الألسنيّات، يصعب أن ترتقي إلى هذا المستوى، ويصعب أن تتعامل مع النص القرآني التعامل اللائق به والقادر على العروج إلى علياء الألسنيّات القديمة. وقد قام البلاغيُّون المسلمون؛ مثل عبد القادر الجرجاني في «**دلائل الإعجاز**»، والزمخشري في «**أساس البلاغة**»، وابن جِنّي في «**الخصائص**»، وسيبويه في «**الكتاب**» والخليل في «**العين**» بدراسات لغوية، وجدت وولدت في البيئة المسلمة، وبتأثير قرآني. لقد كان من الممكن لو أنّ المسلمين جاوزوا تخلّفهم الذي هم فيه، أن يبنوا على تلك الدراسات ليكون لديهم علم ألسنيّات ملائم للتعامل مع القرآن الكريم بمزاياه وبخصائصه كلها، وأن يضيفوا على هذه الألسنيات وعلومها ومناهجها معارف ومناهج أخرى يمكن أن تجعل اللسانيّات الإسلاميّة والعربيّة لسانيّات متميّزة صالحة لخدمة الخطاب القرآنيّ ولحمايته من تطفل الذين لا يعرفون عنه الكثير، ولا يستطيعون أن يتذوّقوه، ولا يستطيعون أن يلموا بكثير من الأبعاد الأساسيّة لقراءته، ولأغنوا أنفسهم عن التطفل على موائد علماء الألسنيّات والبحث الفونولوجي وما إلى ذلك، وأغنوا الكتاب المجيد أن يتعرّض لما تعرض له وما يزال من تلك الدراسات الفجَّة التي لم تستطع أن تخدمه ولا أن تُقدّم له الكثير.

القرآن الكريم نفسه قد هدى الناس إلى مناهج قراءته. فكأنّه قد أخذ بأيديهم، وقال لهم إنْ شئتم أن تقرؤوني فاقرؤوني بهذه المناهج أو بهذه الطرق، فهو قد أوضح الفروق بين تدبّره في حالة الاستماع وتدبّره في حالة القراءة: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (الأعراف:٢٠٤)، فالقارئ نفسه مطلوب منه أن يقرأ بكل الشروط والمواصفات التي تقدّمت الإشارة إليها، والمستمع بحاجةٍ إلى أن يُنصت إلى هذا القرآن بجوارحه كلّها؛ لأنّ للخطاب القرآنيّ طرقًا مختلفة تستدرج القارئ والسامع إلى التفكير فيها إذا ظهرت للقارئ أو السامع المسالك، وأعدّها لاستقباله، فالخطاب القرآنيّ ليس من النوع الذي يمكن للقارئ به أو للسامع أن يضع عوازل بينه وبين تأثيره فيه إذا ما استقبله بقلبه وأنزله

على قلبه واستقبله وهو مدركٌ لعظمته ولأهميَّته ولمزاياه. فقد تضافرت الروايات الدالّة على أنّ القرآن الكريم حين استمع إليه أو قرأه بعض المشركين تأثروا به، ومَنْ منَّا يجهل قصة إسلام عمر بعد قراءته لشيءٍ من سورةِ طه؟ وقصة الوليد بن المغيرة، وقصة الثلاثة الأخنس ابن شريق وأبي جهل وأبي سفيان واستراقهم السمع إلى قراءة رسول الله ﷺ للقرآن. وفي الجانب السلبيّ نجد أنّ المشركين لمعرفتهم بذلك التأثير سارعوا إلى أن قالوا: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (فصلت:٢٦) فقد دعوا إلى عدم السماع أصلًا منذ البداية؛ لأنَّهم يعرفون من قوة الخطاب وصدق تأثيره وتنوّع مصادر قوته الشيء الكثير عن تأثيره فيمن يقرؤه أو يسمعه؛ ولذلك فلم يكونوا يستطيعون أن يعطوا أحدًا فرصةً للاستماع إليه. وفي الوقت نفسه يقول البارئ -سبحانه وتعالى- لرسوله ﷺ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ (التوبة:٦). فلا بد إذا سمع بنوع من الانفتاح أن يحدث الخطاب نوعًا من التأثير فيه، ويشق طريقه إلى قلبه وعقله ووجدانه. فيكون من الصعب جدًّا أن يتلافى ذلك التأثير إذا كان مدركًا لقيمة هذا القرآن وكيفيّة التفاعل معه وكيفيّة استقباله قراءةً أو استماعًا.

إنّ القرآن الكريم بدأ أول ما بدأ بأمر بالقراءة نزلت به: ﴿**اقرأ**﴾ ليرشد الناس إلى ضرورة قراءته ويبيَّن أنه قد يسَّره الله -سبحانه وتعالى- للقارئين فقال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر:١٧)، وبيّن لنا أنّ هناك آثارًا سلبيّة وأخرى إيجابيّة لهذا الخطاب: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ (الأنفال:٢) ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد:٢٨). وهذا كله للذي يؤمن بهذا القرآن ويدرك عظمة وجلالة قدره.

خامسًا: «أسماء القرآن» ومن أهم الأمور التي تساعد القارئ على معرفة القرآن معرفةً جيدة وبناء ألفةٍ معه معرفة أسماء القرآن الكريم بمعانيها، ومعرفة صفاته بدلالتها، وللقرآن الكريم ما يزيد عن أربعة وثلاثين

اسمًا. وله مجموعةٌ من الصفات، أحصاها أو أحصى بعضها الإمام الرازي وآخرون من علماء القرآن الكريم. هذه الأسماء وهذه الصفات زادت على الخمسين. ومن شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهميّة القرآن وإدراك عظمته. وبالتالي تهيئة النّفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحْكَم آياته قراءةً أو استماعًا. وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كريمة كثيرة تُبيّن لنا طرائق استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوتهم له، وطرائق استعمال غيرهم واستقبالهم له، فهو كما قلنا شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة، وهو موعظةٌ للمتقين، وهو بشرى وذكرى ونذارة في الوقت نفسه. لا يمكن إطلاقًا أن يتجاهل القارئ ذلك كله ويصل من دونه إلى المستوى الذي نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة الوصول إليه بقارئه وبسامعه وبتاليه. فالتلاوة يجب أن تكون «**حقَّ التلاوة**»، لا يكون فيها لَيّ بألسنتهم، ولا يكون فيها طعنٌ في الدين، ولا يكون فيها فسادٌ في النيَّة إلى غير ذلك من آداب ووصايا قد اشتمل القرآن الكريم عليها؛ ليُبيّن لنا المنهج الذي نقارنه به ونقرأه به، وذلك هو منهج القراءة ومنهج الاستماع. وهذه كلها تحتاج إلى نوع من الاستقصاء في آيات القرآن الكريم؛ لنتبيّن هذه الآيات، ونضعها في نوع من التراتب والتلازم يسمح للقارئ الوصول به إلى ما يتمنَّى الوصول إليه بقراءته للقرآن الكريم. والله -تبارك وتعالى- ما أنزل القرآن منجَّمًا وما فرَّقه وقرأه على الناس على مكث إلَّا من أجل تثبيت القلوب والعقول به، فقال سبحانه: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً**﴾ (الاسراء:١٠٦) ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾ (الفرقان: ٣٢)، وسمّى رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بعض القراءات بقراءة «الهذرمة»، وسمّى القرآن الكريم بعض القراءات بقراءة «**العِضين**»: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ (الحجر:٩١)، أي قرؤوه باعتباره أعضاء مجزأة مقطّعة مفرقة عن بعضها، فكل هذه الأمور حينما نضمها إلى بعضها سوف تخرج بمنهجٍ دقيقٍ لقراءة القرآن رسمه القرآن نفسه ليهدينا به إلى المنهج الذي علينا أن نتبعه في قراءته وتلاوته وفي الاستماع إليه.

فلا بد من معرفة أسماء القرآن وصفاته، لكي يستصحب القارئ ذلك كله وهو يتلو آيات القرآن الكريم، ويتلوه متدبرًا متفكرًا متعقلًا متذكرًا نظمه، ويتدبر فيه وفي تفرّد أسلوبه، وكيف تحدّى البشريّة

كلها، بل العالمين كافة، وكيف عجزت البشريّة كلها عن الاستجابة لذلك التحدي، وأنّه خطاب يختص بضرورة أخذه بقوة وتلقّيه بقلبٍ منفتح وعقلٍ منفتح وعزيمةٍ صادقة.

فهذه بعض معالم وملاحظات وجيزة لعلّها تبيّن لنا نوعيّة القراءة التي علينا أن نمارسها ونحن نقرأ القرآن الكريم ونقاربه. خاصةً في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، والتي لا نجد فيها بين أيدينا إلا كتاب الله الكونيّ، فهو القادر على إخراجنا من الحيرة وتخليصنا من هذه الفتن، كتاب الله الذي يرسم لنا طريق الخلاص كما يشير إلى ذلك الخبر المروي عن أمير المؤمنين عَلِي -كرّم الله وجهه ورضى عنه- الذي ذكرناه آنفًا.

فهل استطاعت أمتنا -عبر تاريخها، وباستعمالها لمختلف العلوم والمعارف التي وضَعَتْها من أجل استجلاء معاني القرآن- أن تكتشف القرآن، ثم تقدّم ذلك القرآن الكريم للبشريّة باعتباره كتاب استخلاف ومنشأ عمران؟ ودليل استقامه وهداية في هذا الوجود؟!.

لا شك أنَّ أمّتنا قد حاولت، وقد قدّمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وفي قراءته وفي تجويده وزخرفة أوراقه، وفي طرق تناقله، وفي إحصاء كثيرٍ من الأمور الدقيقة الدائرة حوله. ولكن لم تستطع بالرغم من إعداد وكتابة ما يقرُب من مليون دراسة وكتاب ورسالة -ما بين مطبوع ومخطوط في قضايا القرآن وتاريخه وجمعه وعلومه المختلفة- أن تقدّم لنا القرآن كما ينبغي أن يُقدّم باعتباره كتاب خلافةٍ ودليل عمران، ومصدر تحقيق للشهود الحضاريّ في هذه الحياة الدنيا. فدراساتنا في «**علوم القرآن**» قد اتّسمت بكثير من القصور، ودخلت في بعضها قضايا خطيرة مثل دعوى «**النّسخ**»، و«**تعدّد الأحرف**»، و«**القراءات**» خاصّة ما سمّي بـ«**القراءة الشاذة**»، وعن هذه العلوم انتقلت تلك الإصابات إلى بعض معارفنا الأخرى، مثل «**أصول الفقه**»، ومجموعة من الإصابات الخطيرة التي أشرنا إليها بوصفها علمًا نتداولها باعتبارها من علوم القرآن. لقد حمّلت تلك المقولات القرآن الكريم مجموعةً من التساؤلات

الشاغلة عن تدبّره، والأمور التي ما كان ينبغي لهذه الأمّة أن تغفل عنها، وما كان ينبغي أن تسمح لها أن تمر إلى «**علوم القرآن**»، فضلًا عن أن تعيش وتتداول حتى أيامنا هذه. وهناك أخبار منها خبر يُنْسَبُ إلى أمِّنا عائشة -رضوان الله عليها- ولا أشك أنَّها بريئة من ذلك، يقول الخبر إنّها قالت: "أتدرون كم هي سورة الأحزاب اليوم؟ قالوا: يا أم المؤمنين إنّها (٧٣) آية، قالت: والله لقد كنَّا نقرأها على عهد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وإنَّها تعدل سورة البقرة، تجاوز المئين". فهذا القول كيف يمكن أن يُقبل؟ وكيف يمكن أن نستمر بتداوله؟ ونحن نعرف أنّ الله -سبحانه وتعالى- هو الذي تكفَّل بنفسه بحفظ هذا القرآن والحيلولة دون نسيان أو تجاهل أو تحريف أي شيءٍ منه مهما كان، حتى لو كان كلمةً أو حرفًا.

فالقرآن المجيد هُوَ منبع كل خير في هذه العلوم أو المعارف، وكل مَا يؤخذ عليها أو يُنتقد من تفاصيلها أو كليّاتها راجع بشكل أو بآخر إلى مدى قربها واتصالها وانفصالها عن القرآن الكريم. وقد حاول الإمام الرازي، وهو مَنْ هُوَ في علمه وجلال قدره وتفسيره الَّذِي يُعدّ موسوعة معرفيّة في هذا المجال، أن يربط بين تلك العلوم وبين كتاب الله فأعدّ تفسيرًا؛ وضع فيه كثيرًا من قواعد أصول الفقه -وإن لم نقل وضعها كلها- وربطها بالقرآن الكريم، وكذلك فعل مع كثير من الأحكام الفقهيّة والكلامية، والبلاغة واللغة والنحو والتصريف والحديث وما إلى ذلك. فكأنّ الإمام أراد أن يستدلّ على نفسه وعلى غيره من الفقهاء الذين إنّما تشغلهم في فترة التكوين والتعلم والتعليم التفاصيل والجزئيّات، ويستغرقون فيها دون التفات لربطها بالقرآن الكريم؛ لأنّ هناك أمرًا مستبطنًا في قرارة كل نفس من تلك الأنفس، أنّ قواعد الأصول والفقه والحديث النبويّ وما جاء به المفسرون وما جاء من علوم الكلام والعقائد، ذلك كلّه -وإن رُد إلى القرآن الكريم بشكل أو بآخر- ولكنّه في الفترات الأولى من تكوينه كان الرد إلى القرآن الكريم على سبيل الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم وتعضيد مَا توصل إليه أهل العلم خارجه، أو

على الأقل مما صاغوه خارج القرآن الكريم ثم حاولوا تعضيده وإضفاء الشرعيّة عليه وربطه بالقرآن الكريم من خلال عمليّة استشهاد، فكأنّه –رحمه الله– حينما كتب تفسيره أراد أن يستدرك –ولو لم يصرّح بذلك– بأن يجعل القرآن الكريم منطلقًا لتلك العلوم. ولا شك أنّ الإمام الرازي قد كتب تفسيره في وقت متأخّر من عمره، وبعد أن نضجت خبراته واستوت علومه. فكأنّه كان يقول: إذا كنا في بدء حياتنا العلميّة وانشغالنا بالتعليم والتأليف اتخذنا من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة شواهد لما كنا نصوغه من قواعد علميّة في أصول الفقه، أو الفقه، أو التفسير، أو الكلام، أو مَا إلى ذلك؛ فالآن سأعيد هذه العلوم من طريق التفسير أو بطريق التفسير إلى القرآن الكريم، ولعلّي بذلك أجعل القرآن الكريم لا مجرد شواهد معدودة أو أدلة سائدة، ولكن منبعًا ومنطلقًا وأساسًا؛ ولذلك جاء في وصيته أنّه قال: "ولقد اختبرت الطرق الكلاميّة والمناهج الفلسفيّة، فلم أجد فيها مثل مَا وجدت في كتاب الله، أقول في الإثبات كذا وأقول كذا..... إلخ"، والمتأمل في وصيّة الرجل يمكن أن يدرك هذا المعني بوضوح شديد.

وبالنسبة لي، فبعد تلك الجولة الطويلة مع التراث، وبعد أن تكوّنت لدي حاسّة نقديّة مقلقة، لم تعد تسمح لي بأخذ شيء من ذلك التراث على أنّه شيء من المسلّمات، وكما نعلم فالقرآن المجيد والسنّة النبويّة لا تعد تراثًا، بل هِيَ منبعٌ ومنطلقٌ وأصلٌ للتراث. وقد وجدت الكتاب الكريم مما يمكن على الإطلاق أن يوجه نقد معتبر إلى مَا بني عليه. ولكن إذا كنا نجد ميدان النقد متسعًا؛ فإنّ مَا نجده في التراث لم يأخذ حظه من الارتباط بالقرآن المجيد والبناء عليه.

لذلك فقد أخذتُ الدرس والعبرة من موقف الإمام الرازي، وقلت إنّه يجب عليَّ أن أعود للقرآن الكريم قبل أن أبلغ المرحلة التي بلغها الإمام الرازي رحمة الله عليه. ومن هنا بدأت أعمل على تكريس جميع دراستي في القرآن المجيد. والمزايا والدوافع كبيرة جدًّا. فهو الكتاب الكونيّ، ولا كتاب كونيّ في الوجود سواه؛ الآن بعد ختم النبوات بمحمد –صلى الله عليه وآله وسلّم– وختم الكتب السماويّة بالقرآن

المجيد، وهو الكتاب المطلق، المعجز، المتحدي، الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تعبير عن مراد الله تبارك وتعالى سواه. وحينما بدأت الفكرة تلحّ عليَّ وجدت في التفسير ذلك الركام الهائل من الإسرائيليّات والقصص وما نحوها، والفزلكات اللغويّة والصرفيّة والنحويّة والبلاغيّة والأحكام الفقهيّة، وما سوى ذلك مما اعتبرته قد تحوّل إلى حاجز وحائل بين الناس وبين القرآن الكريم، أو على الأقل بين الناس وبين التدبّر في القرن الكريم؛ لأنّهم وجدوا من تلك المعارف التي أدرجت في التفسير مثلًا يعدُّ بمثابة التفسير الفقهيّ أو تفسير لآيات الأحكام، وأصول الفقه أصّلت وقعّدت ورُبطت ببعض آيات الكتاب الكريم، لأدنى مناسبة، ولأقوى مناسبة، بحسب مَا كان يراه المؤصّلون. كذلك كثيرٌ من القضايا التاريخيّة والسنن وغيرها، ووجدتُ علومًا كثيرة من علوم القرآن الكريم ومعارفه لم يُلتفت إليها بقدر كافٍ لانشغال الناس بقضيّة الأحكام. فإذن، لا بد من العودة إلى القرآن الكريم، فهو كتاب الاستخلاف وكتاب التوحيد والعمران والتزكية، وهو الَّذِي يعطي كل ذي حقّ حقّه فيما يتعلق بالله -تبارك وتعالى- من توحيد وسواه وفّاه حقه وزاد، وهو منبع لأصحّ ألوان الاعتقاد وأنواعه ومراتبه، وهو أصحّ المصادر فيما يتعلّق ببيان الحقوق والواجبات وما إلى ذلك، وهو -قبل وبعد- الكتاب الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وهو الكتاب الَّذِي فصّله الله -تعالى- على علمه، الَّذِي لا يضيق بشيء، بل أحاط بكل شيء علمًا.

إذن، لا بد لنا من الارتباط بالقرآن الكريم، وربط مشاريعنا التجديديّة والحضاريّة به بشكل وثيق، وإلا فقد تستمر حالة التيه هذه التي نعيشها إلى فترات طويلة. وسوف نستمر ننطلق ونعود إلى النقطة التي انطلقنا منها أو بدأنا منها في عمليّة تيه متصلة لا تتوقف؛ لذلك وجدت أنّ في مراجعات التراث ونقده في نور هداية القرآن الكريم وسيلة من وسائل التجديد والاجتهاد وإعادة البناء الَّذِي ننادي به جميعًا. وعجزت كل الدعوات المنادية به عن تحقيقه أو الوصول إليه، والقرآن الكريم يحدّد لنا مجموعة من

السنن والقوانين الاجتماعيّة التي وصلت البشريّة -بعد جهد جهيد- إلى مَا يقرب منها، وما يزال كثير منها بعيدًا عن متناول البشريّة التي اتخذت هذا القرآن مهجورًا.

والقرآن المجيد -قبل هذا وبعده- صرّف الله -تعالى- فيه من كل مثل، وفصّله على علمه المحيط الشامل، وراجع فيه تراث النبوّات، وصدق عليه وهيمن، وتناول فيه مستقبل البشريّة، ورغّب ورهّب. رغّب في السبل المنتجة القادرة على إعانة الإنسان على تحقيق الغاية من العهد الَّذِي أبرم بينه وبين الله تعالى، وفي الوقت نفسه تحقيق غاية الحق -جلّ شأنه- من الخلق، وإقامة هذه الحياة على قواعد ثابتة تجعل منها حياة طيّبة، وتجعل من مرحلة الجزاء مرحلة تجعل مآل الإنسان إلى رضوان الله -تبارك وتعالى- وإلى جنّته.

ووجدت أنّ اللجوء للقرآن الكريم وتفسير القرآن بالقرآن، واستنباط المشاريع الحضاريّة والاستخلافيّة والعمرانيّة، ومشاريع تزكية الإنسان وتزكية الحياة، أو مَا يمكن تسميته بالتزكية الشاملة التي تشمل العقل والتصوّر والرؤية والفكر والاعتقاد والسلوك وأنظمة التعامل والعلاقات. كل ذلك تستطيع أن تحصل عليه وتجده واضحًا في القرآن الكريم. وإذا عرفنا المداخل التي نقاربه بها ونلج إلى رحابه بواسطتها؛ فالقرآن الكريم هُوَ أولى أن يُفصح عن نفسه ويُبيّن مكنون آياته ويعرّف بما جاء فيه، فالقرآن الكريم يأتي في سياق مَا على الإيجاز، وفي سياق آخر على الإطناب، ويأتي في سياق آخر على الإجمال، وفي سياق على التبيين، ويأتي في سياق مطلقًا، وفي سياق آخر مقيّدًا، وفي سياق يكون عامًا، وفي سياق آخر ينتهي إلى الخصوص وما توجزه آيات الكتاب الكريم في سياق نجم من نجوم القرآن الكريم أو في سورة تجده مبسوطًا في مكان آخر مضافًا دون تكرار. وما يُجمله في موضع يُبينه في موضع آخر، وهكذا يُطلق ويُخصّص ويُقيّد ويُعمّم. وكل ذلك تجده في الكتاب الكريم.

من هنا فإنّ مَنْ رُزق مداخل التدبّر ومداخل الولوج إلى رحاب القرآن المجيد يجد نفسه قادرًا على الوصول إلى مَا لا يمكن أن توصّله إليه المعارف الأخرى، ومنها المعارف التي سُمّيت المعارف أو العلوم الشرعيّة.

للتفسير أنواع كثيرة كما ذكرنا؛ فمنها التفسير بالآثار المنقولة عن السلف، والتفسير اللغويّ والبيانيّ، والتفسير الإشاريّ، والتفسير الفقهيّ، والتفسير العقليّ، والتفسير العلميّ، والموضوعيّ. ويُطرح الآن توجه نحو التفسير الفلسفيّ. لقد سنّ لنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- «**تفسير القرآن بالقرآن**»، فجلّ ما ورد في صحيح المنقول عنه -صلى الله عليه وآله وسلّم- في التفسير كان من نوع «**تفسير القرآن بالقرآن**» حين تظهر الحاجة إلى التفسير اللفظيّ؛ أمّا التفسير العمليّ والتطبيقيّ فسنّته وسيرته -كلّها- عبارة عن تفسير للقرآن المجيد، فسنّته هي القرآن، وسيرته هي القرآن، وخلقه هو القرآن -صلى الله عليه وآله وسلّم-، وسائر أنواع التفسير التي ذكرناها تطرح تساؤلًا خطيرًا، هو: إنّ القرآن المجيد قد وُصف بأنّه بيان ومبين ونور وميسر للذكر... إلى غير ذلك، مما يدل على وضوحه وعدم حاجته إلى وسيط يقوم ببيانه وتوضيحه، بحيث يفترض ألاّ يحتاج هذا النور والكتاب المبين إلى مَنْ يفسره ليعرف الآخرون معانيه، والمراد به. فلم يُعتنى بهذا الوسيط: «التفسير» أيًّا كان نوعه؟! ما دامت غاياته في النهاية تقريب معاني القرآن إلى أفهام المخاطبين به الذين يفترض القرآن أنّهم مهيؤون للانفعال به والاهتداء بهدايته إذا تلوه حق تلاوته وتدبّروه، وتفكّروا فيه، وتعقّلوا آياته، وتذكّروا مضامينه وأهدافه ومقاصده، وأنّهم مطالبون باتباعه، وبناء حياتهم وعمرانهم وحضاراتهم وفقًا لما نزل به من هداية. كما أنّهم مكلّفون بمعالجة اختلافاتهم، وردّ خصوماتهم إليه، والرضا بحكمه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ (آل عمران:٢٣). ولم يعلّل إعراضهم بعدم فهم الخطاب، بل علّل بعلّة أخرى خاصّة بهم: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (آل عمران:٢٤). فالإعراض وعدم الفقه يأتي من انعدام استعدادات المخاطبين. أمّا الخطاب القرآني فلا اختلاف فيه؛ لأنّه من عند الله -سبحانه وتعالى-. والاختلاف آفة يمكن أن تعتري الخطاب النسبي، أمّا خطاب العزيز العليم، الذي أحاط بكل

شيء علمًا، والكتاب الذي فصّله الله –تبارك وتعالى– على علمه وبعلمه فلن يكون عرضةً لأيّة آفة من تلك الآفات. فالتفسير الإنسانيّ –أيًّا كان علم المفسر وجلالة قدره– لا يمكن أن يكون أبين من القرآن الكريم ولا أوضح. و«**تنوير النور**» أو «**إضاءة الضوء ومصدره**» أمر يتجاوز بعبثيته تحصيل الحاصل؛ ولذلك فإنّ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– لم يفسّر من القرآن بـ«**المعنى المعرفيّ**» للتفسير إلّا آيات معدودات علّمهن إياه جبريل –عليه السلام–؛ أي: نقل جبريل إليه –صلى الله عليه وآله وسلّم– تفسيرهن لحكمة أرادها –سبحانه وتعالى–. ولعلّ هذه الحكمة من بعض جوانبها تعليم الله –تبارك وتعالى– لنبيّه كيف يعلّم الناس الكتاب والحكمة، وجُلّ ذلك يمكن أن يندرج في مجالات تفسير القرآن بالقرآن(١١).

وذلك يعني أنّ التفسير بمفهومه الاصطلاحيّ –فيما عدا ما فسره رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– إن هو إلّا جهد بشريّ يستخدم المفسرون فيه جهودهم وأدواتهم ومعارفهم المختلفة ليتكوّن لهم فهم، يُؤخذ منه ويُترك. فالحكم في قبوله أو ردّه إلى الله تبارك وتعالى. فالقرآن المجيد يفسر بعضه بعضًا. فما هُوَ «**تفسير القرآن بالقرآن**» ؟ أحببنا أن نقرّبه إلى الأذهان في هذا التعبير، وإلّا فهو أكثر من أن يكون تفسيرًا، ولا نريد أن يغلب عليه مفهوم التفسير أو معنى التفسير الاصطلاحي الَّذِي درج المفسرون على استخدامه؛ ألّا وهو معرفة ألفاظ القرآن أو التعريف بألفاظ القرآن، ولكن وجدنا هذه العبارة أو هذا العنوان مناسبًا.

يقوم «**تفسير القرآن بالقرآن**» لا على الناحية الموضوعيّة كما ذهب إلى ذلك بعض المشتغلين بالتفسير. وقد ظنّوا إنّ «**تفسير القرآن بالقرآن**» هو أن تجمع الآيات التي تتعلق بموضوع مَا في موضع

(١١) إنّ رسول الله ﷺ ترك للناس مع كتاب الله سنته وسيرته، وللسنّة والسيرة مفهومها وللتفسير مفهومه، ولو أنّ رسول الله ﷺ فسّر آيات الكتاب الكريم كلّها، بالمفهوم الاصطلاحيّ للتفسير لما جاز لأحد أن يفسر القرآن العظيم بما لم يفسره به رسول الله ﷺ ولوقع كل أولئك المفسرين ومنهم الصحابة والتابعون الذين أثرت عنهم مأثورات كثيرة في التفسير تحت طائلة الوعيد النبويّ، وما فائدة الأمر بالتدبر إذا كان مَنْ أُنزل عليه القرآن العظيم قد فسره كلّه؟ وكيف سطّر الفقهاء من أهل الحديث وأهل الرأي كل تلك الفهوم بأحاديث تفسير؛ أي: أنّ رسول الله ﷺ قد ذكر كل تلك المسائل في تفسيره.

لقد ذكر فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره بأنّه لو شاء أن يضع في تفسير الفاتحة وحدها وقر بعير لفعل دون أن يفرغ من معانيها؛ فهل قصد هو وأمثاله أن يرووا عن النبي ﷺ؟ وما حكم هؤلاء وتفاسيرهم التي بلغت الآلاف إذا كان هناك تفسير نبويّ تجاوزوه بما في ذلك أولئك الذين جمعوا أقوال الصحابة والتابعين في التفسير؟! إنّ الفرق كبير جدًّا بين السنّة والسيرة والتفسير، فإنّ سنّة رسول الله ﷺ مجموع أقواله وأفعاله وتقريراته وهي قطعًا بيان القرآن، لكنّها لا تسمى تفسيرًا بمعناه الاصطلاحيّ، ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ لم يترك تفسيرًا. في ضوء ذلك ينبغي أن يراجع موضوع «التفسير المأثور».

واحد، وتربط بينها وتنظر في تواريخ نزولها وأسباب النزول وما إلى ذلك حتى تتضح لك معاني الموضوع. و«**التفسير الموضوعيّ**» نوعٌ من أنواع التفاسير المهمة ولا شك، والمقرّبة إلى مَا نحن بصدده ولا شك كذلك. ولكن «**تفسير القرآن بالقرآن**» _الَّذِي نريده_ فيه مزايا التفسير الموضوعيّ، ولكنه يستوعبها ويتجاوزها. فمرحلة النظر الموضوعيّ مرحلة يصعب أن يتخطّاها معنى تدبّر القرآن الكريم وتأمله. لكن «**تفسير القرآن بالقرآن**» كما قلنا يتجاوز ذلك كلّه، فهو تفسير وتدبّر وتأمل وتفكر وتعقل وتذكير وترتيل في القرآن المجيد، يستخدم كل تلك المداخل ويتوسل بكل تلك الوسائل ليكون القرآن الكريم المرجع الأساس في فهم القرآن المجيد ذاته، وفي فهم كل مَا جاء ليعلّم البشريّة إياه، سواء تعلّق بالأحكام أو العبر أو السنن أو القوانين أو بناء الحضارات أو بناء العمران، وتحقيق التزكية، تحقيق التوحيد، وبناء التصوّر السليم، وبناء المعتقد الصحيح، كل ذلك تجده في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد يسّره الله – تبارك وتعالى– للذكر. ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد ومحاولة فهمه جزءًا مما بذلوه في تعلّم العلوم الأخرى –التي وضعوها بأنفسهم بتصور أو بحجة أنّها هِيَ التي ستمهد إليهم السبيل لفهم القرآن– لو بذلوا جزءًا من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي ترتيله، وفي حسن تلاوته، وتلاوته حق التلاوة، أو في التفكّر فيه والتعقل والتدبّر والتذكّر والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله وبأدواته وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنّبوا كثيرًا من السلبيّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب.

لذلك نود أن نقول: إنّنا حينما كنا نحاول تعلّم هذا النوع من الممارسة رجعنا أيضًا إلى تراثنا، وحاولنا أن نرى كيف كان رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– يُفسّر مَا يشعر بالحاجة إلى تفسيره لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم. فإذا به –صلوات الله وسلامه عليه– لا يستخدم في تفسير القرآن إلا القرآن ذاته. فحينما يهرع إليه الصحابة خائفين بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي**

الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٨٤). فيقولون: يا رسول الله؛ ومَنْ منا الَّذِي يستطيع أن يهيمن على خواطره وأفكاره. إنّ أحدنا في بعض الأحيان يخطر على باله خواطر يتمنى لو كان أُلقي من شاهق قبل أن تمر تلك الخواطر في خاطره. فإذا برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يبتسم ويقول لهم: "وأين منكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة:٢٨٦)"، فردّهم إلى آية أخرى من آيات الكتاب الكريم يُجيبهم بها على تساؤلهم. ترفع عن صدورهم ذلك الحرج الَّذِي أحسّوه حينما سمعوا الآية الأولى. ويأتي الصحابة إلى رسول الله ذات يوم يسألونه صلوات الله وسلامه عليه: مَنْ منّا يا رسول الله يستطيع أن يتّقي الله حق تقاته؟ بعد أن نزل قوله -جلّ شأنه- في سورة آل عمران: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران:١٠٢)، فأخذ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم بأيديهم إلى آية سورة التغابن: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن:١٥). إذن هناك مناط مبدئي ومنهجيّ. ألا وهو استطاعة الإنسان: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة:٢٨٦)، ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾ (الطلاق:٧)، ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن:١٦)، وما إلى ذلك. وهذا من «**تفسير القرآن بالقرآن**». وكان في مقدور رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- أن يقول شيئًا من عنده أو بألفاظه، ولكن أراد أن يسنّ لهم هذه السنّة، سنّة «**تفسير القرآن بالقرآن**».

وحينما يأتي إلى رسول الله مَنْ يشعر بشيء من شبهة وهو يسمع آية سورة الزمر ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (الزمر:٥٣)، فهنا «جميعًا» للتأكيد، وقد أفادت الشمول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾. ونأتي إلى آيّة في سورة النساء إذا بها تقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن**

يَشَاء﴾ (النساء:٤٨). إذن استثنى الشرك هنا من الذنوب القابلة للغفران. وكأنّ الشرك في هذه الآية الكريمة مما لا يغتفر، أو من الذنوب التي لا تغتفر. وذلك مفهوم كذلك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم. وهو ظلم لذات الإنسان ونفسه قبل أن يكون ظلمًا لشيء آخر. فهو ظلم لخالق الإنسان والكون والحياة ونقض للعهد الَّذِي أُبرم بين الله -تعالى- وبين عباده وهم في «عالم الذّر». والشرك انقلاب على رسالات النبيّين كافّة الذين جاءوا بالتوحيد. وتأتي آية ثالثة في سورة طه وتقول: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). إذن نحن هنا أمام آيات ثلاثة: واحدة أطلقت تمامًا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ ولم تستثنِ. وأخرى استثنت الشرك، وثالثة بيّنت لنا شروط التوبة، وهي تنسجم مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ (النساء:١٧،١٨). فهنا تبيّن هذه الآيات بوضوح شديد أنّ قبول التوبة حق للعبد على ربّه جلّ شأنه، ولكن بشروط. ومن هذه الشروط: أن يكون الذنب قد وقع بجهالة، إذا كان قد وقع عن علم ومعرفة وتعمّد -مثل معصية إبليس- فالأمر يختلف. فالله -تبارك وتعالى- قد طرد إبليس من رحمته، لا لمجرد أنّه عصي ولم يلقّنه التوبة كما لقّن آدم. ولكن على العكس، طرده من رحمته بشكل أبدي لأنّه كان عالمًا بقضيّة الطاعة والمعصية، وعالمًا بأنّه لا ينبغي أن يعصي عبد حقيقي الله تعالى لأيّ سبب من الأسباب. ولكن كبره وغروره حملاه على أن يعصي الله -تعالى- وهو ينكر حكمته -جلّ شأنه- في أمره له بالسجود لآدم، وفي اصطفاء آدم. فبقيّة الملائكة سلّمت لله -تبارك وتعالى- بعد أن علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، سلّمت أنّه هُوَ المؤهل لأنّ يكون خليفة في هذه الأرض، وأمسكت عن التساؤل، وسجد الملائكة كلهم أجمعون حينما أُمروا، مع أنّهم كانوا قد أبدوا اعتراضًا -وإن لم يزد- ففيه تفاصيل أنّهم قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ (البقرة:٣٠)، فتمّ تسليمهم. أمّا إبليس فقال: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾** (الإسراء:٦١)، فكان عنده نوع من الشعور بالغرور والاستعلاء والاستكبار حتى على ربه جلّ شأنه، ونفى عن الله –تعالى– الحكمة في الأمر وفي الاصطفاء، كأنّه تعالى جلّ شأنه، حينما أمره بالسجود، لم يلتفت أو لم يكن جلّ شأنه –وله المثل الأعلى– قد التفت إلى أصل الخلقة بين النار والطين، فهذه الجريمة النكراء الشاملة النافية لكل معاني الربوبيّة الإلهيّة، النافية لحكمة الإلوهيّة والربوبيّة، المتغطرسة المتكبرة المغرورة، لم يكن لها علاج إلا الطرد. وإلا لو كان هناك مجال قد تركه إبليس في معصيته كمجال آدم، بأن يكون قد عصى عن جهل، لربّما لقنه الله –تبارك وتعالى– التوبة، كما لقّن آدم: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** (البقرة:٣٧). ولكن جريمته لم تكن تتقبّل أو تحتمل بأيّ شكل من الأشكال أن يُلقّن التوبة. كما أنّه لم يُفكّر فيها بنفسه، على العكس كان يحاول أن يحصل على فسحة من الأجل والعمر يعبر بها عن غروره وطغيانه وتمرّده، قال: ﴿**فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾** (الحجر:٣٦،٣٧)، قال: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** (الحجر:٣٩). إذن هناك معاندة مع سبق الإصرار دون أيّ تردد، مع وضوح كامل لطبيعة الجريمة التي يرتكبها. ولكنّه يرتكبها عنادًا وصلفًا وغرورًا واستكبارًا واستعلاءً على أوامر الله تبارك وتعالى.

فهنا نعود إلى الآيات الثلاثة. نجد أنّ آيات الزمر سيقت لاستئصال القنوت من نفس الإنسان؛ فقد رأينا ماذا حدث حين قنط إبليس. حدث أن صمّم على الاستمرار في المعصية والتمرّد وعمل السوء إلى يوم الدين. فالقنوط حالة نفسيّة خطيرة، قد تدفع الإنسان إلى مراكبة الشرور. فإذا كان الإنسان قد وقع في شر، فقد يقع بعد القنوط في عشرة. وإذا كان قد وقع في معصية فقد يمارس بعد القنوط مائة. وهكذا، فاقتضى السياق أن يُزال القنوط من نفس الإنسان: ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ**

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣). إنّ له -جلّ شأنه- القدرة على غفران الذنوب جميعًا، فإذن لا تقنطوا ولا تيأسوا. فإذا عرفت كيف تتوب وكيف تمارس التوبة كما أمرك الله -تبارك وتعالى- فهناك أمل أن يتوب الله -تعالى- عليك ويجعلك كمن لا ذنب له. فالسياق إذن متّجه إلى قضيّة القنوط، وليس لقضيّة بيان أنواع الذنوب ومحاربتها، وما يغفر منها وما لا يغفر. أمّا آية سورة النساء، فهي تتحدث في جوّ فيه أناس آمنوا ثم كفروا، آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفرًا، أولئك لن تقبل توبتهم؛ لأنّ الله لا يقبل أن يُشرك به ويَغفر مَا دون ذلك لمن يشاء. فكل ذنوبهم عدا الشرك، وهو الذنب الأساسيّ الَّذِي أصرّوا عليه وكرّروه ومارسوه عدة مرات؛ يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، ثمّ يزدادون كفرًا، هؤلاء لن تُقبل توبتهم بعد ذلك، وبعد تكرار هذا الذنب مع وعي وسبق إصرار وإدراك لمعنى مَا يقومون به: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ (النساء:٤٨). فعلى الإنسان أن يكون حذرًا من الوقوع في الشرك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم، وعلى الإنسان -حينما يوفّقه الله تعالى ويكشف له عن مضار الشرك وينتقل إلى صفوف الإيمان- فعليه ألّا يخرج منها مرة أخرى؛ لأنّه يخشى أن يقع في الشرك مرة ثانية، فلا يستطيع أن يخرج منه، وبالتالي لن تُقبل له توبة بعد الاستغراق في الشرك، وتكراره مرة بعد مرة، والاستهانة به كذنب عظيم. أمّا الآية الثالثة، فهي آية سورة طه ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢)، أراد أن يُبيّن لنا التوبة من حيث الشروط التي لا بد من توافرها في التائب لكي تُقبل توبته، فهي مبيّنة ومنسجمة مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (النساء:١٧). فحينما يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). فالكلام هنا عن التائب، والشروط التي لا بد أن يوفّرها في نفسه، والأمور التي لا

بد أن يلتزمها من أجل أن تُقبل توبته: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (**طه:٨٢**). إذن تاب ورجع إلى الله وأناب، ولتكون التوبة نصوح لمَن تاب وآمن. لا شك أنّ الَّذِي يتوب لا بد أن يكون له إيمان. فكأنّ إعادة ذكر الإيمان بعد التوبة للتنبيه على أنّ هذه التوبة تقتضي إيمانًا لا يشوبه ولا يُخالطه شرك ولا انحراف في المعتقد لمَن تاب وآمن وعمل صالحًا واستقام. أمّا مَنْ أناب فقط ولم تحصل له التوبة العقديّة أو التصحيح العقديّ فلا تُقبل التوبة. وإنّما لا بد من تصحيح عقديّ: ﴿**لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). لا بد أن يصدق الاعتقاد والإيمان، ويُبرهن على صدق التوبة وكونها توبة نصوحًا بالعمل الصالح والاستقامة عليه والاستمرار فيه وعدم الرجوع عنه بعد التوبة؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى نوع من العبث واللعب الَّذِي لا يقبله الله تعالى: ﴿**لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). وهذا كلّه من «تفسير القرآن الكريم بالقرآن»، وهو أرقى أنواع التفسير كما قلنا. وأنت ترى أنّك حين تمارس هذا ترفع عن نفسك سائر الشبهات وتزيل سائر الاعتراضات إن كان ثمة مَا يستحق الاعتراض، كأن يكون مشتبهًا لِمَ أُطلق هنا، ولما قُيّد هناك... إلى غير ذلك. هذا لا يمكن أن يرد ولا يمكن أن يوجد؛ لأنّ القرآن الكريم شفاءٌ لما في الصدور، فحينما نفسر القرآن بالقرآن، أو حين يُفسر القرآن نفسه فإنّما يشفى بذلك صدور الناس، وليس كمثل ذلك أي تفسير آخر، أو الاعتماد على أيّ تأويل آخر.

والأمثلة السابقة في مقاربة رسول الله للقرآن، توضح أن تفسير القرآن بالقرآن، أمر أصّله رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– وبدأ به وعلّمه الناس. كما توضح أهمية اعتبار مبدأ الوحدة البنائيّة، والتي تقوم على مبدأ أنّ في القرآن مداخل لا بد أن تستعمل للولوج إلى رحابه والوصول إلى دقائقه، فهو –أي القرآن– ميسّر للذّكر، و مستوعب مكنون. يقوم مقام النبوّات كلّها ومقام النبيّين كافة، وهو في البشريّة الآن بمثابة النبي المقيم بين ظهراني الناس، يستطيعون العودة إليه والرجوع إليه في كل حين. فإذن

لابد من الالتفات إلى أنّ هذا التفسير يقوم على مبدأ أنّ القرآن الكريم مبيّن. وأعلى درجات بيانه هي بيانه لنفسه. والقرآن تبيان لكل شيء؛ بما في ذلك السنّة النبويّة المطهرة، وكما قلنا فقد مارس رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- هذا، وعلّمه لأصحابه.

ولذلك فقد وجدنا أنّ علينا واجبًا عينيًا وهو أن نقوم بما لم يقم به الآخرون فنجتهد في تقديم القرآن للبشريَّة كما أنزله الله على رسوله الكريم الذي حفظه بنظمه الداخليّ وأسلوبه وفصاحته وإعجازه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ورأينا أن نحمي العقول المؤمنة من أن تذهب نهبًا للإسرائيليات والأكاذيب والموضوعات والمعلقات والمراسيل وما أحاط بما دوّن مما سمّي بعلوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وما إلى ذلك. فأردنا أن نقدّم للناس كتاب الله كما أجمعت الأمة عليه في عهد الإمام الشهيد أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- الذي وضع حدًّا لتلك الاختلافات والمنازعات وتجاوز تلك الآثار والأحاديث التي أدت إلى اختلاف الناس في أحرفٍ وكلمات، وذلك جزءٌ من الحفظ الإلهيّ للقرآن الكريم بحيث انضبطت بنائية القرآن كما انضبطت بنائية النجوم في مواقعها ولم يعد هناك مجالٌ لزيادة حرف أو نقصان نبرة.

وإنّ الميسور لا يسقط بالمعسور، ولذلك فقد رأينا أن نصدر سلسلة كتب لتفسير القرآن بالقرآن، تُعنى بالرد إلى الأمر الأول، وإلى ما كان عليه جيل التلقي الذي تلقى القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن جبريل عن رب العالمين غضًّا طريًّا. إنّ محاولتنا هذه لتفسير القرآن بالقرآن هي دعوة للمسلمين، بل إلى البشريَّة كافة أن ترتبط بالقرآن الكريم وحده وتعتمد عليه بمفرده، وأن تعلم يقينًا أنّه محفوظ بحفظ الله بنظمه وأسلوبه وبلاغته وفصاحته وإعجازه. وإنّ أملنا كبير أنّ كل مَن يقرأ هذه المحاولة بتدبر وإمعان نظر أن يصل إلى القناعة بأنّ القرآن وحده كاف ومغنٍ عن التفاسير التي شابت

الكثير منها الإسرائيليات والآثار التي لم تصح سندًا ولا متنًا وتجاوزت المسند الصحيح الذي قدّم رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم – به منهج التفسير المقبول شرعًا ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

لقد حاولنا أن نتجاوز ما قام به بعض فضلاء المعنيين بالتفسير من العلماء المحدثين من تقسيم السور إلى أقسام موضوعية. وآثرنا أن نستعمل بدل كلمة الأقسام أو الأبعاض أو غيرها كلمة النجوم تيمّنا بنزول القرآن منجّمًا. لكننا لا نعني بها المعنى الاصطلاحي الذي يُقصد به نجوم التنزيل، ولكن نعني به تقسيم السورة تقسيمًا موضوعيًا مترابطًا يعين على الفهم والاستيعاب لسور القرآن الكريم وترابط أجزائها ونجومها وآياتها.

بين يديّ السورة

هذه السورة الكريمة –سورة «الأنعام»– هي السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسين في ترتيب النزول تلت سورة الحجر في النزول.وتُعد هذه السورة من السور القليلة التي نزلت جملة واحدة، على طولها. وقد سميت «سورة الأنعام» بهذا الاسم، فلأنّها اشتملت على أحكام الأنعام، وبيان الحلال والحرام فيها. وهي السورة التي بيّنت –بشكل لا تجده في غيرها –العلاقة الوثيقة بين الشرك والكفر بالله ودعاوى الجاهليّة وبين المآكل والمشارب وأحكام الطعام، وتأثيراتها في ذلك. وأسماء السور أسماء فيها معان وإيحاءات كثيرة. فالأنعام جاء ذكرها وبيان منافع كل منها في سور عديدة لم تغادر وصفًا أو فائدة أو منفعة إلا وذكرت في موقعٍ ما من القرآن المجيد. والقارئ المتدبّر مطالب باستدعاء كل تلك الأمور لتصبح التسمية –وحدها– مصدرًا هامًّا من مصادر التدبُّر ومعرفة نِعم الله تعالى في مدلول الاسم. ولقد ذكر بعض المصادر أنّ هناك من سمّاها بـ«سورة الحجّة» ملاحظة لقوله تعالى :﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وليس ثمّة نصّ يدل على أنّ هذه التسمية توقيفيَّة؛ ولذلك لم تشع، فهذه التسمية الأنعام تسمية وحيدة لهذه السورة. فأسماء سور القرآن هادفة كلها –كما ذكرنا–، و قد ضرب الله تعالى المثل بالبعوضة وما فوقها، ولم يستحِ من ذلك –كما كان المشركون يدّعون –لأنّ هذه الأنعام والحشرات مسخّرات خاضعة طائعة لله –تعالى– بنظام التسخير، فهي –من هذه الناحية –أقرب منهم إلى الانسجام مع مراد الله سبحانه وتدبيره، فهم –أي المشركين والكفار– في تمرّدهم على نظام الخالق العظيم أضلّ سبيلاً، ودون مرتبة الأنعام التي سخّرها لهم، ولم يحرمهم بكفرهم نعمة الاستمتاع بها!! ثم إنّ في هذه الأسماء مفاتيح في الجمع بين القرائتين، وتنبيه للإنسان إلى نعمة التكريم والتفضيل على أمم المخلوقات كافّة :﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٩) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ صحيح أنّ هذه الأنعام خلقت لكم، ولكنكم لا تملكون حق التصرّف المطلق فيها .

لقد ذكر المفسّرون أقوالا كثيرة حول المدنيّ في هذه السورة –بناءً على ما قرّروه من مواصفات لأساليب السور المكيّة وأساليب المدنيّة. وإيماننا بالوحدة البنائيّة للسورة –يُغنينا عن الإسهاب والإطاله في نقل ما قالوه، واختلافهم فيه ومناقشته. إذ إنّ الوحدة البنائيّة للسورة تجعل منها، بعد الترتيب الأخير، والعرضتين بين رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم –وجبريل –غير ذات موضوع، وكذلك ما يتعلق بأسباب النزول. إذ إنّنا نؤمن بأنّ القرآن قد أخذ صفة الإطلاق التام بعد العرضتين وإعادة الترتيب، وقطع ما بينه وبين ما عرف بأسباب النزول. صحيح أنّ بعض الآيات كانت تنزل بمناسبة رَفْعِ البيئة لسؤالٍ إلى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– أو قضيّة. مثل ما حدث في قضايا الإفك والتبنّي وتحريم الخمر ...وغيرها. فيظن بعض النّاس أنّ الآيات النازلة للإجابة عن ذلك السؤال، أو معالجة الإشكال، قد ارتبطت بتلك الواقعة. وكثيرًا ما كان يروى أنّ آية كذا نزلت في كذا؛ أي نزلت في إثبات الأمر الفلاني، أو بيان حكمه، أو تصديق شيء فيه أو تكذيبه ونفيه، وهذه الروايات يمكن أن يستفيد بها المفسر. ولكنّها ليست أحاديث مسندة وصحيحة بحيث تُقَيَّد تلك الآيات بتلك القضايا، ومع ذلك فإنّ العلماء –وإن تساهلوا في بعض الروايات المتعلقة بالأسباب والمناسبات، وكون هذه الآية مدنيّة وتلك مكيّة –ما كان ينبغي لهم أن يجعلوا ذلك كله متداولاً في هذا المجال ومنه مجال التفسير، إلا إذا ثبت برواية صحيحة السند، وصريحة المتن، وسالمة من المعارضة والاحتمال. إنّ اهتمام بعض المتقدمين بهذه الأمور نجم عن اهتمامهم في الأساس بقضايا الأحكام، وظنِّهم أنّ تحديد مكان النزول بمكة أو المدينة، وما سموه بأسباب النزول مفيد في معرفة الناسخ من المنسوخ؛ لاعتماد قضيّة النسخ على التأخر والتقدم.

وموقع سورة الأنعام بين سورتي المائدة والأعراف موقع في غاية المناسبة. فهو يدل على أنّ ما فيها يصلح أن يكون تتمة لسورة المائدة وخاتمة لها، وما يقرب من افتتاح لسورة الأعراف، ومقدمة مناسبة له. خُتِمت سورة المائدة بمعجزة حسيّةٍ من معجزات سيدنا عيسى–عليه السلام –وهي دعوته – اللهَ –جلّ شأنه – بناءً على طلب حواريّيه إنزال المائدة، فأنزلها اللهُ آيةً لعيسى. وقد اشتملت سورة المائدة على بيان كثير من أحكام الأطعمة، وتحديد وتفصيل الحلال والحرام منها. ثمّ جاءت «سورة الأنعام» –والأنعام نفسها رأس الأطعمة –لتستكمل التشريعات التي وردت في المائدة وما سبقها من سور في هذا المجال. كما أنَّ المائدة قد بيَّنت أنّ البشر لا يملكون سلطة تحريم أو تحليل في أيّ شأن من الشؤون المذكورة. بل مَنْ يملك السلطة المطلقة في التحليل والتحريم في كل ما خلق الله، وفي بهيمة الأنعام خاصَّة هو الله _سبحانه وتعالى_ و قد بيّنت سخف وسقم عقليّات المشركين، وتفاهة أحكامهم. أمّا سورة الأعراف، فقد تناولت العديد من مقاصد القرآن المجيد كما تناولت القاعدة الأساس في التنبيه إلى أهم أحكام الملابس والزينة. فالتناسب بين السور الثلاث قائم في أحسن وأكمل وجه.

وهناك ما يقرب من مؤاخاة بين سور القرآن التي نزلت في مكة، وتلك التي نزلت في المدينة. فلكل سورة مكّيَّة أخت أو أكثر في السور المدنيّة. وكأنّ المكيَّة حين تختم تقول لك: "للبحث صلة". وحين تعثر على أختها المدنيّة تجدها وكأنّ هناك إحالة عليها من أختٍ لها مكيَّة، والمدنية تتمة ةتكملة للمكية. وسرعان ما تجد بين السورتين اتصالاً وتكاملاً يشدّ بالقوة إلى متابعة حركة القرآن الكريم في المجتمعين المكيّ والمدنيّ، ويقدّم لك معاني في غاية القوة والثراء والاتساع في طرائق وأصناف الناس المختلفة في التفاعل مع القضايا التي يحملها الخطاب القرآنيّ، وتعطي مؤشرات في غاية الأهمية في إدراك الفوارق بين البيئات وآثارها في التفاعل مع الخطاب إيجابًا وسلبًا. وفي ترتيب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– وجبريل –عليه السلام– للمصحف في العرضتين إشارات لا يصعب اكتشافهما لهذه

الظاهرة، وكذلك في ترتيب الآيات داخل السور. وفي سورة الأنعام نجد تفصيلاً رائعًا لما أحكمته «سورة العلق» في إطار «الجمع بين القرائتين»، وفي إطار بيان العلائق بين الله –تعالى– وهو الخالق المسخّر المستخلِف، والإنسان وهو المخلوق المختار المستخلَف، والكون المسخّر وهو ميدان الابتلاء.

وسورة الأنعام اختصت بمناقشة المشركين في الشرك وتفاصيله، وما يؤدي إليه من سقوط الإنسان في دركات أخرى، وربطت نظام الحياة الإنسانيّة بالتوحيد، وبيّنت الأخطار التي يعود الشرك بها على الحياة الإنسانية ونظمها. وسورة الأنعام تتناغم مع سور أخرى في هذا الموضوع. فلقد تناولت سورة البقرة الظاهرة الإسرائيليَّة في شقها اليهوديّ في عرض تفصيليّ شامل، لا يملك الإنسان معه إلاّ أن يسلّم بضرورة استبدال هؤلاء القوم بغيرهم. أمّا سورة آل عمران فقد تناولت في شقها الأول الظاهرة الإسرائيليّة في إطارها النصرانيّ المسيحيّ؛ لتصل إلى قناعة مماثلة. وفي كلا السورتين كان السياق يعرّج على الأمَّة المسلمة ليُبيّن لها بعض الشرائع والأحكام والأدوار التي عليها الاضطلاع بها –ممّا فرطت به الأمتان السابقتان –لئلا يحدث لها مثل ما حدث للأمم التي شاء الله –تعالى –أن يجعلها بديلاً عنها.

والسورة تبيّن حقائق الألوهيَّة والربوبيَّة مقرونة بدلائل الخلق والإبداع والتسخير والعناية وسائر الدلائل والحجج الأخرى، ومنها الحجّة البالغة التي آتاها الله —تعالى– إبراهيم على قومه ورفع درجاته بها. والسورة تعرّف الإنسان بربه وإلهه بشكل ظاهر بارز في كل ما خلق؛ لئلا يتم بيان حقائق الألوهيّة والربوبيّة بالتجريد، والذي يصعب على عامّة الناس فهمه، فتجد نفسها وكأنَّها تتلقى درسًا من دروس علم الكلام، لا يضيف إلى وعيها بالله –تعالى– شيئًا، ولا يؤدي بها إلى الشعور بالمسؤوليّة وضرورة الالتزام بما أنزل –جلّ شأنه– شيئًا

وفي سورة الأنعام يدور الحوار في أكثر آياتها مع المشركين حول الألوهيّة والعبوديّة، مع تذكير يسير –بين فترة وأخرى –بـ«مشركي أهل الكتاب»، الذين اختاروا لأنفسهم موقف الحلفاء مع المشركين وموالاتهم ومناصرتهم ضدّ رسول الله –صلى الله عليه آله وسلّم –والمؤمنين. وذلك استكمالاً لحلقات الحوار والجدال مع جميع الفئات القاطنة في الجزيرة العربيّة؛ من مشركين وأهل كتاب، الذين اختاروا لأنفسهم موقف العداء لرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– ومعارضة دعوته، وصدّ الناس عن سبيل الله الذي دعاهم لسلوكه. إنّها السورة التي تُجيب بشكل مباشر عن تلك الأسئلة التي عُرفت بالأسئلة النهائيّة، والتي نجد الإجابة عنها جليّة بيّنة في السور المكيّة. ومنها «سورة الأنعام»، وهي الأسئلة المتعلقة بالعقيدة.

إنَّ العلم بالطبيعة يقود الإنسان إلى معرفة الخالق –جلّ شأنه– وإدراك بعض جوانب عظمته سبحانه، ولكنّه ذاك الإنسان الذي لا يزدري الطبيعة ولا يستهين بها، بل يتأمل في نظامها، وقوانينها وسننها، ومظهرها ومخبرها. وكلّما ازداد علمًا بها ازداد معرفة بالله وخشية له :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨). وازداد قنوتًا وإخباتًا لله، ومعرفة بحقيقة الأمانة التي اؤتمن عليها. . وسرد مكوّنات الكون والطبيعة وعالم الخلق –بعيدًا عن ربطها بالخالق العظيم ومقاصده من الخلق –لا يؤدي إلى إدراك حقائقها، ولا إلى «الجمع بين القراءتين» ولا إلى الالتزام بـ«قيم العمران ومقاصد القرآن». فالكون لا سلطان له على الإنسان، ولكن الحديث عن الكون المسخَّر، والطبيعة المخلوقة المسخَّرة، وقوانينها يصبح عونًا للإنسان على اكتشاف ذاته، والاهتداء إلى إلهه وربّه –جلّ شأنه– وإدراك حقيقة مهمته الاستخلافيَّة في هذه الأرض.

إنَّ تفاعلاً ما يُوجد بين الغيب والإنسان والطبيعة، دبّره وأرسى قوانينه الخالق الأزليّ[١٢] العظيم تبارك وتعالى. ولقد ربطت السورة بين تلك الأطراف الثلاثة ربطًا محكمًا؛ لتستدعي على الدوام الارتباط بين النفس والإيمان والعلم والقيم. وتشدُّ ذلك -كلّه- إلى من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور. إنّها السورة التي عرضت حقيقة الألوهيَّة والربوبيَّة في آفاق الكون والحياة، وآفاق الأنفس والضمائر، وفي جنبات عالم الغيب وأطراف عالم الشهادة، دون إغفال لذكر «النشأة الكونيّة والإنسانيَّة والحيويّة». إنَّها سورة تجعل الإنسان يشاهد آثار الألوهيَّة الواحدة في كل شيء؛ في الفطرة والكون والأحداث والبأساء والضراء والنعمة والرخاء. إنَّها تجعل الإنسان عبدًا لله لا يستطيع الغفلة عنه -سبحانه- ولو بجزء من الثانية، فتستولى عليه مشاعر العبوديَّة الواهة، عبوديّة النفس والضمير، والسعي والحركة، والتقاليد والأعراف والشعائر. وكل شيء يُسَبِّح بحمد الله ويُقَدِّس له.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ﴾ (الأنعام:٥٧) نتيجة حتميّة للإيمان بأنّ لا إله إلا الله، ومترتبة عليه، فهي تستلزم نزع السلطان الذي يزاوله الكهنة والحكام. فلا يكون لبشر سلطان على بشر، فالسلطان -كله- لله رب العالمين، فهو السلطان على الضمائر، وهو السلطان على المناسك والشعائر، وهو السلطان في المال، وفي القضاء، والأنفس والأبدان، وتفاصيل الحياة.

وسورة الأنعام، بعد أن تفرغ -في آياتها الأولى -من عرض قضيّة القرآن الأساسيَّة، ومقصد القرآن الأعظم وهو «التوحيد»، وتستدل عليه في الآفاق والأنفس، وتتناول تفرّد الله -تعالى- بالحاكميّة المطلقة، وتجادل عن ذلك -كلّه- إلى أن تقترب من منتصف السورة. تقدّم لنا السورة -بعد ذلك-

[١٢] قد يطلق بعضهم على الذات العليّة -ذات الله- جل شأنه أنّها ذاتٌ مطلقة، وهذا غير صحيح؛ لأنه سبحانه الأزليّ الذي لا أزليّ غيره. أما "المطلقات" فهي ثلاث: القرآن، والإنسان، والكون. وذلك لأنّ المراد بالمطلق: الحقيقة الدائمة المستمرة التي لا تبيد إلا في أجل يحدّده الخالق -جل شأنه- أما الأزليّ فهو: الدائم الباقي المتعالي عن الوقت والزمان والفناء والانتهاء.

النموذج الإبراهيميّ باعتباره النموذج الجاد في البحث عن الحقيقة، والمصمّم على بلوغها مهما تحمّل من المشاق وتكبّد من المتاعب، وهو نموذج ينطلق من الخلق للبحث عن الخالق، ومن الوجود للبحث عن المُوجِد للوجود؛ لأنّه الذي يزعم مشركو العرب وكفار أهل الكتاب أنَّهم على حنيفيَّته وملّته، فأراد تكذيبهم وبيان جهلهم به، وبعدهم عن ملته.

كما يتعرّض السياق في السورة إلى كثير من مداخل الشرك والكفر والضلال، فهناك مدخل الحسد والبغي والغرور والاستعلاء والاستهزاء الذي تصحبه طلبات لا تنتهي؛ منها مطالبة النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلّم– بإنزال الملائكة، أو إنزال الكتاب جملة واحدة، أو أن يأتي الرسول –صلى الله عليه وآله وسلّم– بمختلف الآيات الحسِّية، وهم يعلمون أنّه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، أو تنزل الملائكة لتشهد على صحة الرسالة وصدق الرسول –صلى الله عليه وآله وسلّم– وترافقه في دعوته؛ لأنَّهم –لفرط جهلهم، واعتقادهم بعقائد أسلافهم وأساطير آبائهم –لم يكونوا يدركون أنّ لله سنّة ثابتة في نزول الملائكة، وهي أنَّهم حين ينزلون على قوم كذّبوا رسولهم فإنّهم ينزلون لتدميرهم، وتحقيق سنّة الله فيهم بالإهلاك، فلو استجاب الله لطلبهم، وأنزل ملكًا لقُضِيَ الأمرُ ولَأُهلكوا. ولكنّ الله –تبارك وتعالى –أراد بقاءهم، والإفساح لهم في الأجل، وعدم إنفاذ سنّة الاستئصال فيهم، لعلّ يخرج من أصلابهم مَنْ يوحد الله ويؤمن به.

بعد عرض ذلك كلّه ينبّه الله –تبارك وتعالى –إلى مداخل عديدة للانحراف عن التوحيد. منها مدخل تعاون شياطين الإنس مع شياطين الجن، وتبادل الفريقين إيحاءات الشبهات والمقترحات السخيفة اللاهية، والتي تدل أنّ هؤلاء لم يستطيعوا أن يرتقوا إلى مستوى الجد والرغبة الصادقة في الخروج من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد والهداية والتزكية، وما كان لهم وما يستطيعون. ومنها مدخل التنصّل من المسؤوليّة، وإلقائها على الله –تعالى– وادّعاء الجبر أو إلقاء المسؤوليّة على السادة والكبراء.

بعد ذلك يعرج القرآن الكريم على مدخل خطير من مداخل الكفر والشرك، يقود إلى التمّرد على أحكام الله والخروج عليها، ألا وهو مدخل التحليل والتحريم في الأطعمة، ووصف أولئك المشركين لما يشاؤون بالحِلّ، ووصف أصناف أخرى بالحرمة دون أيّ دليل أو برهان أو أثارة من علم إلا شهواتهم وتحكماتهم. وهنا يحدّد الله –تعالى– بدقة وبمنتهى الصراحة والوضوح أنّ صلاحيَّة التشريع خاصة به سبحانه وحده. فلا أحد في الوجود غيره يحق له أن يحدّد ما هو حلال وما هو حرام من الأطعمة أو سواها. وبعد أن يفرغ السياق القرآنيّ من ذلك –كله– ويقدّم الشريعة بما عُرف عن شريعة القرآن من تخفيف ورحمة، ورفع للحرج، ووضع للإصر والأغلال، وحِلّ الطيبات وتحريم الخبائث، يتجه إلى تحديد مصدر الدين .

ويلتفت السياق نحو القضيّة الأساسيّة الأخرى وهي قضيّة الإيمان بالمصدر؛ مصدر الدين كلّه. عقيدة وشريعة ونظامًا وسلوكًا ومعاملات، ألا وهو القرآن المجيد. ومعرفة قدره وقيمته، وضرورة التسليم بأنَّه كلام الله وكتابه، مع الإشارة إلى أنَّ القوم قد ضلّوا السبيل وفرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وأنّ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– بريء منهم، يعلن –عليه الصلاة والسلام –في ثنايا السورة وفي ختامها بأنَّ الله قد هداه إلى الصراط المستقيم، دينًا قيّمًا، ملّة إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين. ويُعلن عقيدة التوحيد الخالص النقي، وضرورة توجيه كل شيء؛ من صلاة أو نسك أو محيا أو ممات لله رب العالمين، لا شريك له، وأنّه بذلك أمر، وأنّه أول المسلمين، ويعلن –صلى الله عليه وآله وسلّم– أنّه لا يمكن أن يبتغي غير الله ربًّا، فهو الذي أرسى دعائم العدل، فلا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وأنّ مرجع الجميع إلى ربّهم، وأنّه من سينبؤهم بما كانوا فيه يختلفون، وكيف يبغيهم ربًّا غير الله وهو الذي جعلهم خلائف الأرض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليبلو الجميع فيما آتاهم .

وممّا تقدم فقد اتضح أنّ عمود سورة الأنعام هو مناقشة المشركين وشبهاتهم ودعاواهم في جُمْلتها، وقد قامت آيات السورة بتفنيدها وإسقاطها، وبيان تهافتها، وإظهار فساد حياتهم كلها –جملة وتفصيلاً– بناءً على انحرافهم عن جادة التوحيد، وقد قدّمت السورة بدائل عن كل ما اجترحه المشركون وما اخترعوه وما ابتدعوه من أوصاف وأحكام في تفاصيل الحياة المختلفة. فعمود السورة ومحورها هو التوحيد الخالص، بكل أنواعه، ومنها التشريع والاستدلال عليه بالكون، بتفاصيله وجزئياته كلّها، والسنن والقوانين التي تحكمه، ومناقشة ما عليه المشركون من تهافت وانحراف، وإدانتهم –بأفواههم –بذلك كله، مع سرعة عقابه للمشركين، فإنّه غفور رحيم، وهنا تنتهي السورة.

التفسير التفصيلي للسورة

***

النجم الأول: في البدء بالحمد وقصة الخلق.

قال تعالى :﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ *هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ *وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ *وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ *فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ *أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾ (**الأنعام: ١–٦**)

بدأ الله تعالى السورة بـ«الحمد لله»، وهي الكلمة التي افتتح الله كتابه بها، ثم افتتح بها أربع سور مكيّات أخر، اشتملت كل منها على بيان دعوة رسول الله وأمّة المرسلين معه، ومحاجة المشركين فيها. فكانت الأنعام في نهاية الربع الأول من القرآن، ثم تأتي «الحمد لله» في الكهف، وهي مشتركة بين آخر الربع الثاني وأول الربع الثالث، ثم تأتي الثالثة في سبأ، والرابعة في بداية فاطر، وهما آخر الربع الثالث. وقد اقترنت كلمة الحمد في هذه السورة بخلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والإشارة إلى النور الحسي، كما اقترنت في الثانية –وهي سورة الكهف –بإنزال القرآن على عبده، وهو النور المعنوي : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ (النساء:١٧٤). واقترنت في الثالثة بصفات الحكمة والخبرة والعلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها، واقترنت الرابعة بخلق السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً. وما يأتي بعد الحمد بمثابة العلّة والسبب لانحصار الحمد بالله –سبحانه وتعالى– وعدم جواز تعديته إلى سواه؛ لأنّ الحمد يُعتبر أعلى أنواع العبادة، فلا يليق بإنسان أن يوجهه لغير الله –جلّ شأنه –ويصبح قوله سبحانه : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ علّة لحصر الحمد به تبارك وتعالى، ولبيان غرابة ما انتهى إليه المشركون، متجاوزين كل ضرورات العقل والحكمة وحسن التفكير وسداد القول ورشاد الرأي؛ ليجعلوا له من عباده عِدلا وكفؤًا، فقال تعالى :﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. فبالرغم مما ذكر –سبحانه –من خلقه السماوات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وتفرّده بالخلق والإبداع والربوبيَّة والألوهيَّه، فإنّهم يعدلون به سواه.

الخلق الذي ذكره الله –تبارك وتعالى– هنا هو إيجاد من القادر عن تقدير وحكمة مطلقًا. سواء ألوحظ في المخلوق عند خلقه غيرهُ أم لا، ولذلك قرن السماوات والأرض بالخلق. ولكنّه حينما ذكر الظلمات والنور قال :﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. والجعل :إيجاد شيء ملاحظ معه شيء آخر، مثل : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

(النحل:٧٢) وقوله تعالى :﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا*وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦١-٦٢) فالجعل فيه معنى الصيرورة، فيبدأ الشيء بإذن الخالق الكريم -جلّ شأنه- بشكل مَّا، ثم يصير شيئًا آخر. والظلمات والنور حسّيان ومعنويّان، فكما أنّ هناك ظلمات ونور حسيّان كظلمة الليل ونور النهار :﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: ١٢) وهناك ظلمات ونور معنويّان؛ كالإيمان والكفر، وظلمة الجهل ونور العلم. ولتعدد الظلمات جمعها جلّ شأنه، فالظلمات كثيرة متعددة متنوعة، وأمّا النور فواحد، لقوله تعالى :﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس:٣٢).

وقد أكثر القرآن من ذكر النور وحمد الله -تعالى -عليه، وامتنانه على الناس به. فليبادر المسلمون إلى إحاطة أنفسهم -بل والعالم كله -بهالات النور بأنواعها المعنويّة والحسيّة؛ ليكونوا شاكرين لله -تعالى- فعلاً على نعمتي تداول الظلمات والنور. وكان يُتوقع من أمّة احتفى كتابها الكريم بالنور هذه الحفاوة ألاّ يسبقها أحد لاكتشاف الكهرباء والنور، وأن يشتمل فقهها على اعتبار الحصول على النور، وتوفيره لكل إنسان، فريضة من فرائض الأمّة، ومقصدًا من مقاصدها، فلا يسود الظلام قرية من قراها أو مدينة من مدنها أو أي موقع من مواقها. بل يشيع النور فيها بأنواعه، لتختفي ظلمات الخرافة والشعوذة والدجل والسحر والكهانة، والتعلق بالأماني والأحلام، وطلب المسببات من غير أسبابها، ولكن مَنْ يلتفت إلى ذلك هم المهتدون المتقون، الذين حملوا القرآن حملاً إنسانيًّا، ففهموه وفقهوا آياته. وأمّا الذين حملوه ثم لم يحملوه إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا فأنَّى لمثل هؤلاء أن يهتدوا به أو يبلغوا حقيقة أنواره؟ إنّ جُل أقطار المسلمين اليوم تفتقر إلى النور بكل أنواعه، وكأنّها لم تقرأ بسورة النور، ولا ببدايات هذه السورة، ولم تسم إلى إدراك أسباب الامتنان الإلهي على عباده بخلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور. والجعل ينبّه إلى التدخل البشرى المنتظر من أولئك الذين يهتدون بكتاب الله ويهدون به وبه يعدلون. والظلمة حالة

يكون عليها كل مكان ليس فيه نور، أمّا النور فهو الضوء المنتشر، الذي يُعين على الإبصار، وقد يكون هناك فرق ما بين الضياء والنور، والنور –كما سنوضّحه –حِسّي صُوري؛ وهو ما يُدرك بالبصر. ومعنوي عقلي أو نفسي؛ وهو ما يُدرك بالبصيرة. وقد أطلق القرآن على نفسه أنّه نور، وأطلق على رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– أنّه نور. والآية قد أَفردت النور، فذكرته بلفظ المفرد، وذكرت الظلمات بلفظ الجمع، وسائر الآيات –التي قوبل فيها بين النور والظلام –وردت بهذا الشكل؛ إفراد النور وجمع الظلام. فالنور لم يُذكر في القرآن إلا مفردًا، والظلمة لم تُذكر إلا جمعًا .

وحين نحلّل معاني الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ نجدها قد أفادت تقرير وحدة الحقيقة وربطت ذلك بنوع من الصيرورة، التي تجعلها بمثابة النهر الجاري، يُصيب منها مَنْ يوفقه الله –جلّ شأنه– بقدرٍ مّا يشاء له :﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء: ٢٠). و إذا صحب الإيمانَ بوحدة الحقيقة –في ذاتها وعنده سبحانه وتعالى– وعيٌ وفهم يقيان الإنسان من الشعور أو الإحساس المغرور بأنَّ الإنسان يمكن له أن يمتلك الحقيقة ويحيطَ بها. فلا شيء في ذلك، ولكن حين يتوهم الإنسان المحدود النسبيّ أنَّ لديه قدرة على امتلاك الحقيقة والإحاطة بها كما هي، في ذاتها ونفسها، فإنَّ ذلك سيدفعه –لا محالة –إلى الاستعلاء على كل مَنْ يخالفه؛ لأنّه سينظر إليه على أنَّه تجاوز الحق إلى الضلال، وأنَّه تجاوز الحقيقة إلى نقيضها. وبالتالي فقد يؤدي ذلك به إلى تكفير وتجريم ذلك الذي جاوز الحق الذي يعرفه إلى الضلال، وأخطأ الحقيقة وجاوزها ونأى عنها؛ وألاّ تثريب على الناس إذا نظروا إلى الحقيقة في إطار نسبيَّتهم فلم يحيطوا بها علمًا، وهؤلاء –الذين كفروا –حين يعدلون بالله شيئًا، أو يُشركون به، يكونون قد تجاوزوا إلى الضلال حتمًا، وتجاوزوا الحقيقة، فلم ولن يصلوا إليها. ولعلّه –سبحانه –يشير إلى ذلك بقوله :﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١٠) فذلك الذي يليق بمثل هؤلاء الذين عدلوا بربهم تلك الأصنام

والأرباب المتفرقين في العبادة وتوجيه الحمد والثناء إليهم، وطلب الحاجات منهم. وهم الذين لم يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه، فكيف يسوّون بينهم وبين مَنْ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور؟ !﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام: ١١١)

وينتقل السياق إلى الآية الثانية؛ ليُبيّن لنا أصل الخلق، فيقول جلّ شأنه :﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ لينبّه العقل البشريّ أنَّه حين يرجع إلى أصل الخلق، ويتابع مسيرته من بداية الخلق من الطين الذي خُلقت منه النفس الأولى، إلى أن خلق منها زوجها، وهيّأ أسباب الخلق الطبيعيّ المتكرّر وفق السنن الثابتة الإلهيّة لتكون من :﴿نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، كما في بداية سورة الحج وسورة المؤمنون ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لكي لا يبقى أيُّ مجال أمام أيّ ذي عقل وبصيرة ليفكر بأنّ لله في عمليَّة الخلق شريك أو مساعد أو ما إلى ذلك. ثم يبيّن نهاية الحياة، كما يبيَّن بداية الحياة، فإنّ من عادات القرآن أن يذكر الأمور المتقابلة. وما دام قد ذكر بداية الحياة :﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ فلا بد أن يذكر نهايتها، فقال :﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾، وهو أجل حياة كل فرد في الدنيا : ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ألا وهو أجل قيام الساعة، وبهذه الدقة والوجازة والإعجاز يعرض –جلّ شأنه –بداية الخلق ونهايته على مستوى الأفراد والأمم، بل على مستوى الخلق كله، ونجد الإعجاز –كلّه –يتجلى في ألطف صوره في خاتمة الآية الأولى :﴿يَعْدِلُونَ﴾، وخاتمة الثانية ﴿تَمْتَرُونَ﴾؛ أي تشكون، ولم يحدد تمترون بماذا؛ ليجعل الشك معبّرا عن أمراض الذين في قلوبهم مرض، فأهل الشك كلهم يشكّون في الخلق وبدايته، ويشكّون في الله ووحدانيّته، ويشكّون في أصل الخلق ونهايته، وفي البعث وكيفيّته، وفي الآجال التي أجلّها الله للأفراد والأمم وفي الحياة الدنيا.

ويأخذنا السياق بعد هذا إلى التوكيد بأنَّ الله -تبارك وتعالى- شاء هؤلاء -الذين هم بربهم يعدلون ويمترون- أم لم يشاؤوا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، وأنَّكم سوف تحاسبون في يوم لا تخفى منكم فيه خافية، وتُعرضون على هذا الإله الواحد الأحد، الذي يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون، وسيحاسبكم على كل ما فعلتم؛ لِمَ وكيف فعلتموه، وكل ما تركتم؛ لِمَ وكيف تركتموه؟ وسيواجهكم بكل ما فعلتم، وهو مَنْ لا تخفى عليه خافية، وستلقون حسابًا دقيقًا، وكشفًا شاملاً في كل ما فعلتم، وقدّمتم وأخّرتم، وأسررتم وأعلنتم. فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يعلم ذلك كلّه، وقد قدّم لكم دلائل ذلك، وما يشهد على صحته ودقّته.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ*فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ*أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام: ٤-٦) لقد جاءتكم الآيات متتابعة شاملة، ولكنم قد كذّبتم بالحق وصدّقتم بالضلالة، ولم تؤثر فيكم ولم تلفت أنظاركم تواريخُ من سبقكم من أولئك الذين :﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ:١٩)؛ لأنّهم كفروا بآيات الله، واستهزؤوا برسله، واتَّبعوا كل كافر وجبّار عنيد . وستأتيكم الأخبار الصادقة الدقيقة التي تؤكد لكم حقيقة الأنباء التي طالما استهزأتم بها، وسخرتم منها، وأبديتم تعجّبكم منها ونفيكم لها، ونحن نسأل ما إذا كانت قد عميت أبصاركم وأُغلقت بصائركم، فلم تروا شيئًا من أنباء وأمثال أولئك القرون التي خلت من قبلكم، من الذين اقترنوا بأزمان سالفة سابقة؟ أو أنّ جحودكم ومكابرتكم قد حالا بين قوى وعيكم وإدراك الدروس والعبر التي يمكن أن تأخذوها من مصائرهم؟ ولعلّكم تعلمون كيف كانوا ذوي نِعَم وقوة وقدرة وتمكّن في الأرض تتجاوز ما لديكم وتزيد على ما عندكم، وأهلكناهم بذنوبهم وكفرهم وإنكارهم الذي تبنّيتموه وسرتم عليه بعدهم. بل إنَّ بعض

تلك القرون قد مكنّاها ما لم نمكّن لكم، وأنعمنا عليها بما لم ننعم به عليكم، وأترفناهم في الحياة الدنيا، وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم؛ ولكنّهم آسفونا وأقبلوا على الانخراط في ذنوبٍ ومعاصٍ واستعلاءٍ على طاعتنا، فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين. ولقد ذكر الله -جلّ شأنه- في سور أخرى ما يُماثل هذا حين قال :﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التوبة:٦٩) ويقول -جلّ شأنه- في قصة قارون ما ذكر، ويعقّب عليها بقولهِ، بعد أن زعم قارون أنَّه إنّما أوتي ذلك كلّه على علم عنده، فردّ -جلّ شأنه- عليه :﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص٧٨) فهذا الغرور الذي يجعل الخالفين لا يعتبرون بالسالفين، ولا يأخذون الدروس مما حدث لهم، كأنّ السياق يُنبّهنا أنّ هذه الرذائل -الصارفة عن قبول الحق عن سنّة من السنن ماضية- على الإنسان أن يقاومها، وأن يدفعها عن نفسه، وذلك بملازمة الذكر :﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ*وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٣٦،٣٧)، والذكر -هنا -لم يُرَدْ به أن نجلس ونذكر الله بالاستغفار والعبارات والكلمات فحسب، بل يتحقق ذلك بمداومة الاتصال بالقرآن ذي الذكر، وتدبُّره، وتفهّم معانيه.

وعند نهاية هذه الآية السادسة، نجد أنفسنا أمام نهاية قسم يمثّل مقدّمة السورة، وينبّهنا إلى عمودها وموضوعها الأساس، ويؤكد على أهمّيته، ويستدل له، فيوظف دليل الخلق لإثبات الخلق والربوبيّة والألوهيّة وصفات التوحيد، ويبيّن ضلالَ أهل الشرك وانحرافَهم، ويشير إلى أنَّ داءهم الأساس يكمن في غفلتهم وإعراضهم، وأنَّ هذه الغفلة هي التي تهيّؤهم لإنكار ما هو بدهيّ في الحق، وما هو ظاهر ظهورًا

كبيرًا، كما يشير السياق إلى غفلة هؤلاء عن دراسة تواريخ من سبقهم، وهو درس في بيان كيف يُؤتى الإنسان من الشيطان ليُصرف عن الإيمان!! فهو –بداية– يؤتى من جهله بالله –سبحانه– وغفلته عن حقيقة الربوبيّة، ثم بلادة حسّ تجعل هذا الإنسان الضعيف يواجه ما يأتيه من آيات بالإعراض، ظنًّا منه أنّ ذلك الإعراض هو الذي يُريحه من مهام معاناة التدبُّر والتفكر في الدنيا، وسيريحه من مهام وأعباء المساءلة والحساب في الدنيا وفي الآخرة، أمَّا الدنيا فإنّه لا يتوقع فيها حسابًا على هذا الذي يؤمن به أو ينكره، وأمّا الآخرة؛ فلإنَّه لا يؤمن بها، ثم يصم آذانه وبصيرته عن استخلاص أيّ عبر أو دروس، وكأنّه يرفع شعار: أن امشوا واصبروا على كفركم وشرككم وإعراضكم. وهذا القسم المؤلَّف من آيات ستّة مقدِّمةٌ لكل ما سيأتي في السورة من أقسام أخرى، نجد عند التدّبر أنّها أشير إليها في هذه المقدّمة لتهيئة البصائر والعقول لفهم ما يأتي من آيات إن شاء الله.

النجم الثاني في إثبات صدق وإعجاز الرسالة، ورد سائر الشبهات عنها:

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ*وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ*وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ*وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ*قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ*قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ*قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ*مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ*وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى**

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ*قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ*وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ*ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ*وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ*وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ*وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ*بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ*وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ*قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ*وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ*قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ*وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ*وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ*إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ*وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام٧-٣٧).

يتكون النجم الثاني من نجوم هذه السورة المباركة -على ما يبدو لنا- من ثلاثين آية من آياتها تبدأ بالآية السابعة :﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقد اشتملت على كشف سخريّة أولئك المشركين واستهزائهم، وعدم جديّتهم في كل ما تناولوه، فقد كانوا يقولون :﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢) وردّ الله -سبحانه -عليهم مقولتهم للتشكيك بصدق مصدر الرسالة تلك :﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان:٣٢).

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ*وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ*وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ*وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فنزول القرآن مفرّقًا لا يسوغ عدم اعتراف الذين كفروا بمعجزة الرسول، وعدم إيمانهم بها، ولا يعني أنّه لو أنزل جملة واحدة لآمنوا به؛ لأنّهم كاذبون في دعواهم تلك. فالعليم الخبير الذي يعلم من خلق علم منهم ذلك وقال جلّ شأنه :﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، إذًا فكل ما يزعمونه لا يدل على أنَّهم جادّون، فلا ينبغي الالتفات إلى ما يثيرون أو يزعمون من مزاعم التشكيك بمصدر الرسالة وكتابها، ألا وهو القرآن المجيد.

الآيات (٧_١١) تتناولَ مصدر الهداية، ألا وهو القرآن المجيد. وتتناول فيما تتناوله بيان طرائق الذين كفروا في استقباله، وسخريتهم وعدم جديّتهم في النظر إليه، وإدارك أهميّته، ومعرفة ما يحمل من

وسائل الهداية، ثم يدعوهم إلى السير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين لكتب سبقت القرآن في نزولها على رسلهم وعليهم، يأمر اللهُ –جلّ شأنه– رسولَه –عليه الصلاة والسلام –أن يسأل هؤلاء الساخرين : ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:١٢). إنّه سيترككم تسخرون وتمرحون كما تريدون إلى أن تبلغوا آجالكم، وأجلاً مسمى عنده. وهناك سوف ترجعون إلى الله الذي سوف يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، وستعلمون أنّكم خسرتم أنفسكم بعدم إيمانكم بهذا النبي والكتاب الذي أُنزل عليه. وإذا كان موسى –عليه السلام– قد أوتي تسع آيات حسّية، فالقرآن المجيد ستّ آلاف ومائتان وستة وثلاثون آية؛ وكل آية من آياته تحمل دلالة على آيات لا تُعَدّ ولا تُحصى من علم الله وآيات الكون المنتشرة فيه :﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت:٥١)

ويستمر السياق بأساليب مختلفة، يلفت أنظارهم إلى الله الواحد الأحد، فاطر السموات والأرض، ثم في الآية التاسعة عشرة يسألهم :﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. وهنا يبدو أنّهم أثاروا سؤالاً من نوع جديد، هو :أنت تؤكد أنّك تؤمن بموسى وعيسى، فلِمَ لم يؤمن أهل الكتاب بك ولم يصدقوك؟ ولم يقولوا أنّك نبي مثل موسى وعيسى؟ فيُجيب القرآن الكريم عن ذلك التساؤل :﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام٢٠) ثم يُبيّن مدى ظلمهم إذ افتروا على الله كذبًا، وزعموا أنَّ هذا الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ليس هو المقصود في وصايا وبشائر أنبيائهم، فافتروا على الله كذبًا وكذّبوا بآياته، ولن يُفلح الظالمون.

ولقد قطع الله -تبارك وتعالى- حجج هؤلاء كلّها، وأثبت لهم ولسواهم أنّهم مجرد قوم معاندين جاحدين، لا يهمهم التحقُّق أو التثُّبت، بل كل ما يهمهم هو إشغال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- والسخرية به ومنه. وقد أخبر الله رسوله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بكل ما كانوا يُخفون من قبل، وأظهر له سرائرهم، ومنها أنّهم كانوا حين يرونه -صلى الله عليه وآله وسلّم- إن يتخذونه إلاّ هزوًا، قال تعالى :﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا*إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٢،٤١). فهم مجرد قوم يصِدّون ويُعرضون عن آيات الله، ويريدون أن يشاركهم الآخرون ذلك الإعراض. وما ذكر الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية الكريمة هو عبارة عن تزكية لمصدر الهداية ومنبع الإسلام القرآن المجيد، وبيان أنّه لا ريب فيه، وأنّه هدى للمتقين، وأنّه :﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، وأنَّ عدم إيمانهم به أو تقبّلهم له إنّما هو بغيٌ وحسد وجحود وإعراض، وتنكُّر للحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبذلك يظهر عناد هؤلاء الضالّين الجاحدين وبغيهم.

ثم ينتقل إلى معالجة مسألة أخرى سألوها؛ ألا وهي أن ينزِّل ملكًا ليُخبر هؤلاء الضالّين، ويشهد بأنّ هذا القرآن صِدْقٌ وحق، وأنّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- صادق فيما نقله عن ربه ليُظهر هؤلاء الضالُّون أنفسَهم بمظهر الإنسان الجاد الباحث عن الحقيقة وعن الدليل والمثبّت الذي لا يطلب أكثر من التأكد من صدق ما جاء النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- به :﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ*وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ*وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ويردّ -سبحانه وتعالى- عليهم ذلك بأنّ نزول الملائكة لا يكون لهذه الأغراض، ولكنّه يرتبط بأغراض أخرى، وأنّهم يوم يرون الملائكة لا بُشرى يومئذ للمجرمين، فهم آنذاك لا يُنظَرون ولا يُمهَلون؛ فمجيء الملائكة

يعني أنَّ القول قد حقّ عليهم، ووقع عليهم بما ظلموا :﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (الفرقان:٢٢) فهذا الكون له خالق مدّبر يُسَيّره -سبحانه -بقوانين لا علاقة لها برغباتهم. ثم يُبيّن الله -تبارك وتعالى- لهم بأنَّه لو جعل ملكًا لجعله رجلاً، فلا يظهر لهم بصفته الملائكيّة، بل بصفته الإنسانيَّة؛ لأنَّه لا يمكن أن تقوم بينهم وبين عالم الملائكة أو عالم الجن أو غيره من العوالم الغيبيّة علاقات مباشرة، وأنّه -سبحانه وتعالى- لو جعل مَلَكًا يأتي إليهم بصورة رجل لاختلط الأمر عليهم، وخَفيَ، ولما استطاعوا التمييز. فهم لم يدركوا بعدُ نسبيّتهم ومحدوديّة قدراتهم وطاقاتهم .وفي سورة الإسراء يرد الله -تعالى- عليهم ذلك بطريقة أخرى :﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٥)؛ أي: لو أنّ الملائكة كانوا هم المستخلفين في الأرض، والمستقرين فيها، لنزّلنا عليهم -من جنسهم- مَلَكًا رسولاً، ولكن الذي نجح في اختبار الاستخلاف هو آدم عليه السلام، فلِمَ تستغربون أيّها الجاحدون أن يبعث الله بشرًا رسولاً؟ وتجعلون من ذلك سببًا لإعراضكم عن الإيمان، وهو أمر بدهيٌّ، استيقنته قلوبكم، وجحدته ألسنتكم.

ثم تأتي الآية العاشرة :﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لتُسرّي عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وتبيّن له أنّه ليس الرسول الوحيد الذي تعرّض لاستهزاء قومه وسخريّتهم، بل هو واحد من أمّة الرسل الذين استهزئ بهم من قبله. لكنّ العاقبة دائمًا للرُسل، ولا يحيق المكر السيّء إلاّ بأهله، والسخرية ينبغي أن تتجه لأولئك المستهزئين بهم، لا بالرسل الأطهار.

ثم يدعوهم القرآن المجيد إلى السير في الأرض :﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هذه المرة، ثم النظر بعقولهم وعيونهم في أمر هام جدًّا لا ينبغي أن يلتفتوا لسواه، ألا وهو النظر في عاقبة المكذّبين من خلال النظر الدقيق فيما تركوا من آثار وبئر معطلة وقصر مشيد، فقد تركوا

كثيرًا من جناتٍ وعيون وزروع ومقام كريم، وقرى خاوية على عروشها من بعدهم :﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥٨)، هذا السير في الأرض والنظر فيها، والنظر في آثار أولئك الذين هلك بعضهم بالطاغية، وهلك آخرون بالرجفة، وهَلك فريق ثالث بريحٍ صرصرٍ عاتية، وأُهلِكت قرى بجعل عاليها سافلها، وإمطارها بحجارة من سجيّل، كل ذلك قد حدث، وهناك آثار باقية تُذكّر بما حدث، وتؤكد أنَّه قد حدث. فهل يريد هؤلاء المشركون العرب –ومَنْ انضم إليهم من كفّار أهل الكتاب –أن تكون عاقبتهم مثل عاقبة أولئك المكذبين؟.!

إنَّ السبيل واضح، فإمّا أن يُكذّبوك ويستمروا في تكذيبك، فتكون العاقبة مثل عاقبة المكذبين من قبلهم لمَنْ سبق أن أرسلنا من رسلنا :﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وإمّا أن يؤمنوا بك ويتّبعوك، فيحيوا حياة طيّبة، ولهم الجزاء الحسن في الدار الآخرة.

ثم يوّجه الله إليهم السؤال الذي لا يملكون أن يُجيبوا عليه إلا بنسبة الأمر لله جلّ شأنه :﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهم لا يتردّدون –إن أجابوا عن هذا السؤال– أن يجيبوا بمثل جوابك، فهم يعلمون أنّ لا مالك للأرض ولا للسماء إلا هو، وأنَّهم –في إنكارهم البعث والنشور ووحدانيّة الله تعالى –قالوها مقلّدين متّبعين لآبائهم :﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (المؤمنون:٨١) والله تبارك وتعالى –الذي تُشركون به ما لا يسمع ولا يُبصِر ولا يُغني عنكم من الله شيئًا –كتب على نفسه بفضله ونعمته الرحمة' وهو مَنْ سيجمعكم يوم القيامة للحساب والجزاء، وهو يوم لا شك فيه، ولا شك أنَّكم ستشهدون أنّه لا إله إلا هو، مهما كابرتم ونفيتم. وآنذاك، سوف تدركون أنَّكم خسرتم أنفسكم بعدم إيمانكم به –سبحانه –مع كل ما خلق وأوجد وعرض عليكم من دلائل، وإنَّكم لتعلمون أنَّ له –

سبحانه –ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم. فكل ما استقر في هذا الوجود، في أيّة لحظةٍ زمنيّة، وفي أيّ جانب مكانيّ، إنّما هو ملكُه تبارك وتعالى؛ ولذلك فإنّي لن أتخذ وليّا ناصرًا –أعبده وأحبّه ويحبّني هو –من دونه، فيأمر الله –جلّ شأنه –رسولَه –صلى الله عليه وآله وسلّم– أن يُعلن لهم، وفي إطار استفهام استنكاري :﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ*قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ*مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ*وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وهنا يقف –صلوات الله وسلامه عليه– منهم مثل موقف أبيه إبراهيم :﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ*قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ*قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ*قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ*فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ*الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ*وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ*رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ*وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ*وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ*وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ*وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ*يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ*إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء٧٠_٨٩) وذلك لدفع هؤلاء إلى أن يحاوروا أنفسهم بما فرض الرسول الكريم –صلى الله عليه وآله وسلّم– عليهم من أسئلة، مهما تجاهلتها تلك النفوس المريضة فلن تستطيع أن تُسكت أصواتها في داخلها. ونجد السياق هنا مرة يجعل رسول الله –صلى الله عليه وله وسلّم– مخاطبًا مثلهم في مثل قوله تعالى :﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وذلك ليؤكّد على بشريّته –صلى الله عليه وآله وسلّم– من ناحية، وليُبيّن اللهُ لهؤلاء أنّ القرب منه والبعد عنه مرهونان بأعمال محدَّدة، وأنّ النبي الكريم –صلى الله عليه وآله وسلّم– لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا إلا بتبليغ هذه الرسالة، وتعليمهم

الكتاب والحكمة، وتزكيتهم بها، فإنْ لم يفعلوا فقد خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين :﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم يأتي السياق متنزّلاً معهم إلى ما يمكن اعتباره البحث عن شهود يشهدون على أنَّه رسول الله، وأنّ القرآن كتاب الله المنّزل عليه، فيقول لهم: إنّي جئتكم بالشهيد الذي لا يمكن التشكيك بشهادته ولا الطعن فيها، فيقول لهم :﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ فالله هو الذي يشهد لرسوله –صلى الله عليه وآله وسلّم –ويزوّده بآياته ليفتح بها عقول هؤلاء وقلوبَهم :﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ في كل ما أنكرتموه عليّ ورفضتموه منّي، فهو يشهد أنّي عبده ورسوله، وهو يشهد أنَّه اصطفاني لرسالته، وأنزل عليّ وحيه، وهو يشهد أنَّه قد أوحى إليَّ هذا القرآن، وأمرني بإنذاركم به، وإنذار كل مَنْ أستطيع إيصال صوتي بالقرآن إليه.

ثم يلتفت السياق –بقوة –ليُحرّك تلك العقول الخائرة المريضة الجامدة، ويحملها حملاً على أن تتدبَّر فتتفكر فيما هو معروض عليها، فيسألهم عليه الصلاة والسلام :﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهو استفهام تقريريّ استنكاريّ في الوقت نفسه، أمَّا أنا _ يقول عليه الصلاة والسلام_ فلا أشهد معكم هذه الشهادة الباطلة الضالّة؛ لأنَّني أؤمن بأنّه إله واحد، فلن أصاحبكم في شهادتكم الظالمة تلك، بل أشهد أنّه إله واحد، وأُعلِن برائتي التامة من شركائكم ومما تُشركون.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أمّا أولئك الكتابيّون، الذين كانوا

يزعمون أنّهم أهل كتاب ومؤمنون، لكنَّهم سمحوا لأنفسهم بمظاهرة ومناصرة المشركين ضد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– وضد المؤمنين والموحدين، فيُعلن الله –جلّ شأنه– أنّ ضلالهم ليس بأقل كثيرًا من ضلال أولئك المشركين، فهم يعرفون رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– كما يعرفون أبناءهم، بتلك الأوصاف الدقيقة التي ذكرها أنبياؤهم لهم، ونزلت كتبهم بها، وأخذ منهم العهد والميثاق على أن يُبيّنوا ذلك للناس، وأن يُسارعوا إلى الإيمان بهذا الرسول، ويعزّروه ويوّقروه، وينضموا إليه وينصروه على أعدائه، ففعلوا عكس ذلك، فاستحقوا مثل ما استحقه أولئك المشركون، خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وقد يكون هؤلاء الكتابيُّون أكثر ظلمًا للرسول وللرسالة من أولئك الجهلة من المشركين؛ إذ قد أضافوا إلى شركهم رفضهم الإيمان ومخالفتهم وصايا أنبيائهم وما جاؤوهم به، فهم من الظالمين، والظالمون لن يُفلحوا ولن ينتصروا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ*ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وكانت هذه الالتفاتة إلى أهل الكتاب، الذين آزروا المشركين وحالفوهم، ضرورّية جدًّا ليعود السياق بعدها إلى الحديث إلى المشركين، فيذكّرهم الله –جلّ شأنه– بالبعث والنشور والحشر، ويُخبرهم بسوء موقفهم آنذاك، حيث يقول الله –جلّ شأنه– لأولئك المشركين :﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، الذين جعلتموهم شركائي في ربوبيَّة أو ألوهيَّة، فلم يصدر عنهم من جواب أو رَدّ مقنع يجيبون به، إلا أنّ شركهم وكفرهم –الذي انتهى بهم إلى ذلك المصير– صوّر لهم أنَّهم لو كذبوا على الله ونفوا أنَّهم كانوا مشركين، وأقسموا بالله على ذلك، فقد ينفعهم هذا، فصاروا يقولون : ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فكذبوا بذلك على أنفسهم، وضّل عنهم وتاه في مسالك التيّه والضلال ما كانوا يفترون، فلم يقدّموا لهم أيَّ شيء، بل زادوهم رجسًا إلى رجسهم.

ثم ينتقل السياق إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يصوّره لهم، ويضعهم فيه لعلهم يتدبّرون، ليذكر الحشر وليذكر موقفهم حين لا يجدون ما يقولون بين يدي الله إلا أن يكذبوا -مع قسم بالله- كذبوا فيه :﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ويبدأ بيان بعض أصناف هؤلاء الذين لا يختلفون عن الأصناف الأخرى إلا بشيء من الرياء والنفاق والالتواء، يجعلهم يُشعرونك -وقد يُشعرون الآخرين -أنَّهم يستمعون إليك، يجدون فيما يستمعون ما يعنيهم برسالتك وبالكتاب الذي أنزل عليك، فيقول تعالى :﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهم -في الوقت الذي ينهون الآخرين عن الاستماع إليك، ويمنعونهم من النيل منك، بناء على عصبيَّة قبليَّة وحميَّة جاهليَّة، أو ينهون الآخرين عن الاستماع إليك وينأون بأنفسهم عنك وعن القرآن- فإنَّهم بذلك -كلِّه- يهلكون أنفسهم دون أن يشعروا. فهذا ذكرٌ لبعض أحوال أولئك المشركين، فيُبيّن لنا أنَّ فريقاً من أولئك المشركين وإن كانوا يستمعون لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولكنَّه استماع المعرضين، استماع اللاّعبين بقلوب لاهية، فيحرمهم ذلك من الاستفادة بما يسمعون، أو يحرمهم من فقهه وفهمه ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنبياء:٢) لأنَّ الله قد جعل على قلوبهم أكنّة تمنعهم من فقه ما يسمعون من كلام الله، إنَّهم يسمعون مع إصرار عجيب على ألاّ يغادروا مواقع الكفر إلى الإيمان، وإن يروا كل آية مهما كانت فإنَّهم لن يؤمنوا، ولديهم جواب سخيف واحد لم يملّوا تكراره وترديده على سخافته وتفاهته، فإذا جاؤوا رسول الله ليُجادلوه -كما يزعمون -فهم لا يجدون ما يجادلون به سوى أن يسبُّوا ويشتموا ويصفوا القرآن المجيد بوصف هم أكثر الناس علمًا بأنَّه لا ينطبق عليه، وهو «أساطير الأولين». والعجب من أمرهم أنَّ عصبيتّهم القبليّة قد تدفعهم في أحوال نادرة إلى إظهار شيء من الولاء في الدفاع عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم -إذا ما جاء أحدٌ غيرهم للنيل منه بمثل ما يفعلون،

فيقول الله جلّ شأنه :﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، يَنْهون غيرهم بدافع حميّة قبليّة جاهليّة عن أن ينالوا من رسول الله –ﷺ– بمثل ما يفعلونه من النيل منه، وفي الوقت نفسه يُعطون لأنفسهم الحق في إيذاء رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم –والمؤمنين بكل أنواع الأذى، أو أنّ جحودهم وغطرستهم تجعلهم ينهون الآخرين عن اتّباعه، ويبتعدون بأنفسهم عنه، فجريمتهم مضاعفة :تأتي من الامتناع عن الإيمان والرفض له، والإقبال على الشرك به، مصحوبًا بصدّ الآخرين ونهيهم عن الاستماع إليه أو الإيمان به. وهُنا يخبِر الله تعالى نبيه –صلى الله عليه وآله وسلّم– بموقف لم يشهده، فهو موقف مستقبليّ غيبيٌّ لا يعلمه إلا الله، فكأنه –جلّ شأنه– يقول له صلى الله عليه وآله وسلّم :ولو ترى موقفهم ذاك لما قضيت العجب من غطرستهم واستعلائهم في هذه الحياة الدنيا، وذلّهم وهوانهم في الدار الآخرة، ذلك الموقف حين يوقفهم الله على النار، ويرونها عيانًا، ويرون ما فيها، فلا يجدون ما يقولون إلا الصراخ وتمنّي المستحيلات :﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك عندما يظهر لهم ما كانوا يُخفون من قبل، ويظهر لهم أنَّ النار حقيقة واقعة، وأنّ العذاب مصيرهم ومآلهم. وهنا يُبيّن الله –تعالى– أيضًا لرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– تحجُّر قلوبهم :﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فإنَّهم في الآخرة، وهم يرون كل شيء عيانًا، سوف يحاولون اللجوء إلى الكذب، ويحاولون أن يَعِدُوا بما لا يُتوقع أن يوفوا به، فلو أنَّ تلك القلوب المتحجرة كان فيها أيَّة أثارة من لين للانت في الحياة الدنيا، واستفادت من فسحة الأجل، والله يعلم إنّهم لكاذبون في قولهم :﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنَّهم لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وإنّهم لكاذبون. هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة كان كفيلاً بأن يجعل هؤلاء يُعيدون النظر في موقفهم، ويدركون صدق رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم –وهو الصادق الأمين في كل ما جاء به؛ ولذلك يُخبرنا الله بأنَّهم مازالوا على إصرارهم على القول :﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، فاذكروا البعث والنشور والحساب، وهو إنكار لا يقل سخفًا عن طريقتهم في إنكار صدق

رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– في رسالته وصدقه في القول بنزول القرآن عليه؛ فهناك مَنْ قالوا: "أساطير الأولين"، وعن البعث قالوا: "وما نحن بمبعوثين"، وبهذا السَفَه يواجهون الحقائق الكبرى التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ثم يأتي السياق ليُوقفهم هذه المرة، لا على النار، بل بين يدي الله تعالى :﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾، فلا يُمهلون ليقولوا :﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، بل هو سؤال واحد يعقبه المصير إلى النار والعياذ بالله :﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام:٣٠).

﴿قد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ إنَّ جميع آيات الكتاب الكريم، والأحاديث النبويّة التي ارتبطت بالساعة؛ أكدت على أنّها لا تأتي إلا بغتة، والبغتة من البغت؛ وهو :أن يُفاجِئ الشيءُ من حيث لا يحتسب المفاجَئ أن ذلك سيحدث، قال تعالى: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧)، وقال: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (الزخرف:٦٦). ومع ذلك فقد روى الناس أحاديث كثيرة، وأُلِّفت كتب في أشراط الساعة وعلاماتها ومقدماتها، بحيث لا تصبح بعد ذلك بغتة كما ورد في كتاب الله. فلقد ازدهرت الكتابة فيما عرف بالملاحم والفتن منذ القرن الثاني الهجري، وانتشرت الأحاديث في الملاحم والفتن بكثرة. ولم ينظر كثير من النقاد إلى ما قد يُصادم معنى البغتة ومفهومها، وإلى ما لا يُصادمه. ولم يخل عصر من العصور من إضافة كتاب أو أكثر في أشراط الساعة، وقد قسّموها إلى أشراط صغرى وأشراط كبرى واسترسلوا بذلك استرسالاً شديدًا. وقد كان مدخل أشراط الساعة مدخلاً واسعًا لإضافة ما ورد بأخبار ظنيّة في ثبوتها ظنيّة في دلالاتها، أو قابلة للتأويلات، مثل ما

ورد في نزول المسيح عليه السلام، وخروج المهديّ، وما إلى ذلك[١٣]. وقَلّ أن تجد كتابًا في الحديث خلا من باب أو أبواب في الفتن والملاحم، مع تأكيد القرآن الكريم على أنّها لا تأتي إلا بغته، ولقد وقع خلق كثير في ترديد أشراط لن تحدث إلا يوم القيامة، ولكنهم زعموا أنّها علامات صغرى وعلامات كبرى تسبق القيامة، ولعلّ منها قوله تعالى :﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢)، ومع وضوح الآية وظهورها، فقد تجاوزها الناس إلى آثار كثيرة تُشبه ما كان يُعنى به بنو إسرائيل في إسرائيلياتهم؛ من الدخول في تفاصيل كثيرة حول شكل الدابة وطولها وطريقتها في الكلام وما إلى ذلك. ولو التفت الناس إلى أسلوب القرآن الكريم وهو يقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾، فوقوع القول ينبّه بوضوح إلى أنّ الحياة الدنيا تكون قد انتهت وحق على الناس القول، بل وقع القول، وبدأت أحداث اليوم الآخر، وخرجت الدابة لتكلم أولئك الكافرين، فكأن الله -تبارك وتعالى- يقول لهم: لقد أرسلت لكم رسلي، بشر مثلكم، بألسنتكم، يكلمونكم، ويخاطبونكم بما تعرفون ولا تنكرون، وبما تعقلون، فلم تقبلوهم ولم تنتفعوا بما جاؤوكم به، وكنتم مثل الدواب :﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ*وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنفال:٢٢-٢٣) ﴿إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾

---

[١٣] ومن الكتب المنتشرة والمتداولة في أيامنا هذه في الموضوع «إتحاف الجماعة فيما كان ويكون بين يدي الساعة» لمؤلفه الشيخ: حمود التويجري، يرحمنا الله واياه، وهناك «الإذاعة في أشراط الساعة»، «والملاحم والفتن» لابن كثير، «والفتن والملاحم» لأحد كُتّاب الشيعة في القرن السادس الهجري، و«الإشاعة لأشراط الساعة»، وغيرها من الكتب.

(الفرقان:٤٤)، فهبطتم في حياتكم الدنيا إلى مستوى الأنعام، وإلى مستوى الدواب، وذلك زيادة فى النكاية بهم وتبكيتهم ودفعهم إلى الندم والحسرة[١٤].

إنّ هذه الأمور يجب الوقوف بها عند آيات القرآن الكريم، لا نجاوزها بأي حال من الأحوال، وإلا فستضطرب الرؤية، وتختل العقيدة، وتحتار العقول، وتتفكك الأمّة، وتتجارى بها الأهواء. ولا أظنّها في أيامها هذه في حاجة إلى مزيد من ذلك، فلديها من الأزمات ما يكفيها، ليتمنوا :﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ (الأنعام:٢٧)، يخرج لهم دابة من الأرض تكلّمهم وتدفعهم إلى الندم على أنهم لم يؤمنوا بآيات الله، وكثير مما سُمّي بالأشراط يقع في هذا الإطار. فطلوع الشمس من مغربها معناه أنّ المجموعة الشمسيّة والسنن والنظم التي تسير عليها كلها قد انتهت أعمارها وبلغت أجلها، وصارت في طريقها إلى مجموعة الأحداث التي ستحدث في ذلك اليوم ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ*وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ*وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ*وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ*وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ*وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ*وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ*وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ*وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ*عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير:١-١٤)، فالشمس سائرة في

[١٤] وأذكر أنّنا كنّا في مدينة الرياض قبل ما يقرب من ثلاثين عامًا، فجاء أحد طلبة العلم إلى الشيخ عبد العزيز بن باز يرحمه الله، وكان القادم مضطربًا خائفًا جدًّا، وقال للشيخ" :يا شيخ، إنّ الدابة قد خرجت، وإنّها شوهدت هذا الصباح على الصفا في مكة، وإنّ نصفها آدمي ونصفها الآخر في شكل حيوان، وإنّك لا بد أن تحذّر الناس من هذا الأمر"، فما كان من الشيخ إلا أن رفع سماعة التليفون على أحد كبار المسؤولين يخبره بالأمر، ويطلب منه أن يُكلف شرطة مكة بالبحث عن الدّابة، ومعرفة صحة ما روى هذا الرجل. وقد بقيت الأوساط القريبة من الشيخ والمحيطة به تتابع الأمور، وتنتظر من خبر الدابّة مّنْ يأتيها بالخبر اليقين، ولم تجد الشرطة ولا غيرها أيّ أثر لهذا الذي ذكر، لا في مكة ولا في غيرها، ولا أدري إذا كان قدماء المصريين كان لديهم تصوّر لدابّة نصفها آدمي ونصفها دابة ليتحقق المصطلح، فصنعوا أبا الهول ليكون تجسيدًا لذلك التصور.

طريقها إلى التكوير، والجبال سُيّرت، والعشار عُطّلت، والوحوش حُشرت، والبحار سُجّرت، والنفوس زُوّجت، والسماء انفطرت، والكواكب انتثرت، والبحار فُجِرّت، ثم تبدأ أحداث الحشر والحساب ثم الجزاء، فهذه الأمور عبارة عن أحداث ستقع في اليوم الآخر، يوم انتهاء هذه الحياة الدنيا وتوقفها. لكن الذين شغلوا الأمّة بأحاديث الفتن، وأشراط الساعة، وقبلوا فيها الموضوع والضعيف والمعلول و صححوه، كانوا يستغلون –في غالب الأحيان –أحوالاً من الضيق والضّنك والمحن والحروب والفتن تمر الأمّة بها، فيتعالمون عليها، ويحاولون إعطاء تفسيرات لتلك الأحداث، لا تعالج أمراض الأمّة، ولا تشكّل فيها دافعيّة نحو التغلب على حالتها، بل تزيد من يأسها وقعودها واستسلامها وإيهامها بأنّ كل ما يحدث إنّما هو قدر مقدور لا رادّ له ولا دافع، فرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– قد تنبّأ به، وقد أخبر عنه، وما دام الأمر كذلك فعليها أن تستسلم لكل حدث، وتخضع لكل جبّار، وتنتظر ما يأتى بعد ذلك بدلا من أن تقوم بواجبها في الإصلاح والتغيير، والأمر بالمعروف.

وإذا كانت هناك بعض أحاديث صحيحة، تناولت أمورًا مثل الفتن والهَرْجْ والحروب، ومعاداة الأمم الأخرى، واجتماعها ضدّ هذه الأمّة، فإنّما هي تحذير من السقوط في أحوال تؤدي إلى ذلك فى غالبها، فحين يحذّر الله –تعالى –فى القرآن من أن تسلك هذه الأمّة سلوك بعض من سبقها، فتتخلى عن حمل الكتاب حملاً إنسانيًّا، والعناية به، وتتساهل في وحدتها، وتهمل دعوة الناس إلى صراط الله، وتضعف قبضتها عن التمسك بكتاب الله، فإنّ ذلك سوف يؤدي إلى ضعفها وتفرُّقها، وتشتّت شملها، وتكالب الأمم ضدّها، وما إلى ذلك، فما صح من هذه الأحاديث، مسوق لتحذير الأمّة من أمور حذّر القرآن منها، ونهي عن السقوط فيها، أو التساهل في إبرازها والتهاون في مقاومتها، كي لا تؤول أحوالها إلى الوهن الذي حذّر القرآن منه، وحذر رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– منه كذلك.

وأمّا تلك الأحاديث الواردة في التجديد، وأنّ هذه الأمّة لن تخلو من المصلحين والدعاة إلى الله، وإلى سبيله السويّ المستقيم، فذلك لدفع اليأس عن قلوب المؤمنين، وإعطائهم الآمال التي تُقَوِّي الدافعيّة لديهم للإصلاح والتجديد والجدّ والاجتهاد والجهاد في سبيل الله، فهي أمّة أراد بنوها ومؤسسها رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– أن يجعلها قادرة على أن تنهض بسرعة إذا ما كبت، وأن تُفيق إذا ما غفلت، وأن تُجَدّد نشاطها إذا ما افترت، وأن تكون قادرة على الحيلولة دون ظهور الظلم فيها أو الانحراف، فلا يليق بها أن تقعد عن مهامّها تلك وهى الأمّة التى أراد الله لها أن تكون وسطًا شاهدة على الناس. وبذلك يكون دور تلك الأحاديث دور المنبّهات والمنشّطات للدافعيّة، لكن من المؤسف أنّها تحوّلت –على أيدي أولئك الغافلين– إلى أمراض فتّاكة في عقل الأمّة وجسدها، تُقعدها عن النهوض، وتصرفها عن مقاومة الأمراض، وتدفعها إلى الاستسلام لأسوء الأمور، وهذه الأمور لا بد من إخضاعها للقرآن المجيد أولاً وثانيًا وثالثًا؛ لأنّها أمور تتعلق بالعقيدة وبالرؤية الكليّة، فلا تؤخذ إلا من يقينيّات القرآن وقطعيّات آياته وسوره، وإلا فإنّ معتقدات الأمّة ورؤيتها سوف يُصيبُها الدمار والخراب والعياذ بالله.

والله –تبارك وتعالى– حين قال: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد:١٨) نبّه إلى أنّ أهم أشراطها مبعث خاتم النبيّين، فهو إيذان بقرب وقوعها، وقرب انتهاء هذه الحياة الدنيا، إذ لا نبي بعده، ولا كتاب ينزل بعد القرآن حتى قيام الساعة. ومن العجب أنّ المسلمين –تأثُّرًا بأهل الكتاب– أشاعوا أخبارًا واهية لا تصح، منها ما ردّدها بعضٌ من أنّ هناك حديثًا يقول: "لا تؤلّفان"؛ أي: لن تبلغو سنة ألفين، ولا ندري إذا كانت سنة ألفين من الهجرة –علمًا بأنّ التاريخ الهجري لم يظهر إلا فى عهد سيدنا عمر– أم في التاريخ الميلادي، ولا يُعقل أن نُخَاطَبَ به، ويُقال لنا: "لا تؤلفان"، وها نحن قد جاوزنا الألفين من ميلاد السيّد المسيح. فلابد من وضع هذه الأخبار تحت هيمنة القرآن، والتصديق عليها بآياته، أو التوقّف عن تداولها بتلك الطريقة البلهاء، وكأنّنا أمّة لا كتاب لها ولا هداية.

لقد زعم مَنْ زعم –بناء على دعوى جورج بوش– أن السيّد المسيح لا بد أن يكون قادمًا ما بين سنة سبع وتسع بعد الألفين؛ ولذلك غرّته إسرائيل، ودفعته لتفكيك العراق واحتلاله سنة ٢٠٠٣م؛ لتهيئة الأجواء لنزول السيّد المسيح، ومازالت إسرائيل تمكر مكرها على بعض المغفّلين فى أمريكا وأوروبا بادّعاء أنّ هدم الأقصى وبناء الهيكل لا بد أن يُمَهّد له الطريق، وأنّ هذا إنّما هو من التحضيرات التي لا بد منها لنزول السيد المسيح وعودته، وإلا فإنّه لن ينزل، وهاهم يقومون بعمليّات إجراميّة على مرأى من العالم كله ومسمع؛ لأنّهم حيّدوا أولئك الذين بأيديهم القوة ولديهم القدرة على منعهم من القيام بذلك بتلك الطريقة، فأضحى كل ما تفعله إسرائيل من قتل الفلسطيين وتشريدهم، ضروري لمجيء السيد المسيح ونزوله.

والله تعالى يعلن –جلّ شأنه– خسران الذين كذّبوا بلقائه، وأضاعوا أعمارهم كلها في غمرات التكذيب، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة –دون انتظار منهم أو توقع– قالوا: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

ويلتفت السياق إلى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– الذي كان يحزنه جدًّا غفلةُ هؤلاء وإعراضهم؛ ليقول الله جلّ شأنه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، مما يؤكد أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا قناعتهم الداخليَّة ويقينهم بصدق رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– في كل ما جاء به، لكنّهم يجحدون –أي ينكرون– بألسنتهم، وتأبى قلوبهم. والجحود: نفي اللسان لما يستيقنه القلب، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:١٤)، وقال سبحانه: ﴿بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (الأعراف:٧)، ويبيّن الله –جلّ شأنه– لرسوله الكريم –صلى الله عليه وآله وسلّم– أنّ إخوانه من الرسل قد كُذّبوا أيضًا، فواجهوا التكذيب بالصبر حتى أتاهم نصرنا الآتي لا محالة، ولكن في مواقيت حدّدناها

نحن بحكمتنا. ولقد جاءك من نبأ المرسلين ما يؤكد لك بأنّك لست بدعًا منهم، وأنّ ما أصابك قد أصاب مَنْ سبقك، وأنّ عليك بالصبر والصلاة، حتى يأتي نصرنا في موعده ووقته. لكن إن كبُر عليك إعراضهم، ووجدت لو استجبت لطلباتهم، وقمت بإتيانهم بآيات حسيَّة كالآيات الحسيَّة التي آتيناها موسى وعيسى، فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض، فتغوص في أعماقها، أو سلَّمًا في السماء لتأتيهم بآية، فافعل، وما أنت بفاعل إلا بإذني، ولن تستطيع أن تأتي بآية كما أوتي الأولون إلا بإذني، وقد آتيناك الآية الوحيدة الكبرى، وهي الآية الأهم والأنسب للرسالة الخاتمة التي أُرسل بها خاتم النبيين والمرسلين بشكل مباشر، وهي الآية التي انفردت بها، وهي التي تتحدَّى بها، ألا وهي «القرآن المجيد»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧)، فهذه آيتك الدائمة العالميّة، وأمّا الآيات الحسيّة فهي آيات آتيناها بحكمتنا لمن سبقوك، فاعلم أنّنا لو شئنا حمل قومك على الهدى وإكراههم عليه لجمعناهم على ذلك، فلا تكوننّ من الجاهلين.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم مشهدًا آخر من مشاهد يوم القيامة، يصوّره لهؤلاء الجاحدين، ويضعهم فيه لعلهم يتدبّرون، ليذكر الحشر وليذكر موقفهم حين لا يجدون ما يقولون بين يدي الله إلا أن يكذبوا –مع قسم بالله– كذبوا فيه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ويبدأ بيان بعض أصناف هؤلاء الذين لا يختلفون عن الأصناف الأخرى إلا بشيء من الرياء والنفاق والالتواء، يجعلهم يُشعرونك –وقد يُشعرون الآخرين– أنَّهم يستمعون إليك، يجدون فيما يستمعون ما يعنيهم برسالتك وبالكتاب الذي أنزل عليك، فيقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فيبيّن أنهم بنهيهم

الآخرين عن الاستماع إليك، ومنعهم من النيل منك، بناء على عصبيَّة قبليَّة وحميَّة جاهليَّة، وبنأيهم بأنفسهم عنك وعن القرآن الكريم فإنهم يهلكون أنفسهم دون أن يشعروا.

ويستمر السياق يُقلّب هؤلاء، وينتقّل بهم من مشهد من مشاهد القيامة إلى آخر، ومن الدعوة إلى النظر إلى تحذير من مصير سيء، حتى نهاية الآية (٣٧)، حين يقترحون على رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– أنّ يُنزل عليهم آية كما أُنزل على الآخرين من قبله، وبخاصة موسى وعيسى، " إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ*وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ*" (الأنعام: ٣٧،٣٨) فنرى أنّ الآيات كلها –من السابعة إلى السابعة والثلاثين– تدور حول القرآن الكريم مصدر الهداية، تجادل عنه، وترد شبه المشركين المثارة عليه، وتنبّه إلى صدقه وعظمته وقدراته المتنوعة على إخراج البشرّية من الظلمات إلى النور.

النجم الثالث في بيان جانب من جوانب الخلق الداعية للتفكُّر:

يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ*وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ*فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ*فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى

قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ*قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام:٣٨-٤٧).

يبين الله -جلّ شأنه- في الآية (٣٨) جانبًا من جوانب الخلق في هذا الكون الفسيح، الذي لا ينفرد هؤلاء بالعيش فيه، يذكّرهم بالعالم الذي غفل عنه هؤلاء، ولم يتدبّروا ما فيه، بل انشغلوا في ظلماتهم وكبريائهم، ونسوا الأمم الأخرى التي خلقها الله جلّ وعلا.

حين يُدرك هؤلاء أنّ الدواب -كلّها- والطيور -جميعها- أمم أمثال البشر؛ ولكن حكمته -سبحانه- قد اختارتكم من بين هذه الأمم -كلها- لعبادته، وللقيام بمهمّة الاستخلاف في خلقه، وسخّر لكم كل ما خلق لتقوموا بهذه المهمة، وكرّمكم من أجلها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠). وأحسن خلقكم، وصوّركم فأحسن صوركم، ذلك -كلّه- لتمكينكم من هذه المهمة التي قبلتموها باختياركم، وعاهدتم الله عليها برضاكم، ثم ها أنتم تتمردون عليها، وتنزلون إلى مستوى ما سخّرنا لكم من مخلوقات، بل أقل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ*وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنفال:٢٣) لقد منحناكم قوى وعي، وقدرات، وطاقات لتستفيدوا بها وتستعملوها في أداء مهمتكم تلك، ففرّطتم بها وعطلتموها، ولم تستفيدوا بشيء منها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩). إنّ تكذيبكم بآياتنا يجعلكم أقلّ شأنًا من الخلق المسخّر، من جميع أممهم؛ من طير ودواب ووحوش، ويوم تحشرون مع هذه الأمم -كلّها- فسيكونون أحسن حالاً منكم؛ لأنّنا لم نؤتهم ما آتيناكم من قوى الوعي، ولم نعاهدهم على ما عاهدناكم عليه؛ ولذلك فإنّنا سنقول لهم: كونوا ترابًا، فلا يدخلون جنّة ولا نارًا، أمّا أنتم فإنّ مصيركم إلى النار؛

لأنّكم نسيتم الله، ونقضتم عهودكم معه، وتخليتم عن مهمتكم الاستخلافية التي كُرّمتم بها، فأنساكم الله أنفسكم بما نسيتم يوم الحساب.

إنّ هذه الأمم –من الطير والحيوان– لم تنجُ من مظالم المفسدين في الأرض. فالمفسدون في الأرض لم يقتصروا في أضرارهم على الإضرار بالبشر أمثالهم، بل أضرّوا كذلك بالحيوان والطير والنبات والبيئة كلّها، وهذه الأمم –التي أصابتها أضرار المفسدين في الأرض– سوف تشهد ضدّهم في موقف الحشر، كما تشهد عليهم جوارحهم: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ*حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ*وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت:١٩–٢٣). فسيأتي يوم تنطق فيه بالشهادة عليكم، حيث لا يؤذن لكم (أيها الكافرون) بالنطق.

ثم يلتف إليهم بسؤال قَلَّ ألاّ يُصادف إنسانًا، في موقف يجعله يجأر باستغاثته ولجوئه إلى الله وحده، وذلك حين يرى عذاب الله أو الساعة، فيقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأنعام:٤٠) فإنّ عذاب الدنيا مهما اشتد فإنّه دون عذاب الساعة، فحين يأتي العذاب، وتجد فطرتكم فرصة للتعبير عن نفسها بعيدًا عن ضغوطكم وانحرافاتكم؛ لأنّ هول المفاجأة لن يسمح لكم باستدعاء عبادتكم الشركيّة، وشركائكم وضلالكم، وإنّكم حينها ستتوجهون باستغاثتكم إلى الله وحده، وتلك هي الفطرة، فتذكّروا حين تستغيثون ربكم في القيامة وقد ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون. فهل تتوقعون أن يُغيثكم وقد استكبرتم عن طاعته في الدنيا، ولم

تستجيبوا لرسله، ولم تُلبّوا نداءه، فلِمَ لا تستجيبون له اليوم ليستجيب لكم غدًا؟! إنّكم في الدنيا، حين يخلّى بين فطرتكم ومواجهة المواقف الصعبة، فإنّها تتجه إلى الاستغاثة بالله، فلِمَ لا تنسجمون مع فطرتكم، وتؤمنون بربكم، وتتمرّدون على شياطينكم وأعدائكم بدلاً من تمردكم على إلهكم الحق؟!.

إنّ سنن الله ماضية في الأفراد والأمم والجماعات كما نبّهنا تعالى في قرآنه، فيذكّر بأمم كثيرة جاءتهم رسلهم بالبيّنات، وبدأت السنن الإلهيّة تجري عليهم، وحين كذّبوا رسلهم -كما فعل قومك معك- أخذناهم بـ«البأساء» و«الضَّرَّاء». و«البأساء»: كل ما يُصيب الإنسان في غير نفسه، كالمرض؛ وتعني كذلك الشدّة والقوة والضرّ والمكروه، وهي في النكاية أكثر[١٥]. أما «الضر»: فهو سوء الحال؛ إمّا في نفسه لِقلّة العلم والفضل والعفّة؛ وإمّا في بدنه لعدم جارحة ونقص؛ وإمّا في حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه؛ ولذلك كان دعاء أيوب عليه السَّلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣) ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (الأنبياء:٨٤)، فهو محتمِل لثلاثتها[١٦]. وكلاهما رُبطا بتشكيل دوافع «التَّضرُّع»، أي التَّذلل والخشوع، الذين من شأنهما أن يدفعا هؤلاء القساة في قلوبهم، غلاظ الأكباد، إلى التوبة والإنابة إلى ربهم، والرجوع إليه، لكن قسوة قلوبهم، وغلظة أكبادهم، وتجَمُّد قوى وعيهم، حالت دون ذلك. «التضرّع» و«الضراعة»: الضعف والذّل، قال تعالى: ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ (الأنعام:٦٣)، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (الأنعام:٤٢)[١٧].

[١٥] مُحَمَّد عبد الرؤوف المناوي، التعاريف. دار الفكر المعاصر و دار الفكر - بيروت و دمشق. ط١ (١٤١٠). ت د. مُحَمَّد رضوان الداية. (ص١١١).

[١٦] الحسين بن مُحَمَّد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، مفردات ألفاظ القرآن. (دار القلم- دمشق) (٥/٢).

[١٧] الأصفهاني، (٩/٢).

ثم تبدأ عمليات استدراج لهؤلاء المعاندين: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ*وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف:١٨٢،١٨٣)، فتُفتَّح عليهم الأبواب في سعة الرزق وصحة الأجسام وكثرة الأهل والولد، لتبدأ قوى وعيهم تتحرك في اتجاه مغاير مفارق، فيتوهمون أنّهم كانوا على صواب في كفرهم، فتربط قوى وعيهم –المريضة الكليلة– بين تكذيبهم رسلهم وكفرهم وشركهم والوفرة في أرزاقهم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة:٨٢) ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس:٢٤). آنذاك، يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: يائسون من النجاة، متحسّرون على ما فرّطوا في جنب الله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

و«الإبلاس» كما يعرّفه الأصفهانيّ في المفردات هو: الحزن المعترض من شدّة البأس، يُقال: «أبلس»، ومنه اشتق «إبليس» فيما قيل، قال عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الروم:١٢)، وقال تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ (الروم:٤٩)[١٨]. والدَّابر: هو الآخر، والمراد: أهلكوا –جميعًا– عن آخرهم. وذكر الحمد –هنا– " وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " لبيان أنّ إهلاك هذا النوع من البشر فيه إنقاذ للأرض ومَنْ عليها من العابثين والمفسدين، فالحمد لله قاصم الجبَّارين، ومنقذ المستضعفين، وقاطع دابر المفسدين سبحانه. لقد أُمر نوح أن يحمد الله أنْ نَجّاه ومَنْ معه في الفلك من القوم الظالمين، وأهلك بالطُّوفان الآخرين: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا

[١٨] الأصفهاني، (١/١١٥).

مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ*فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ*وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ*ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (المؤمنون:٢٧-٣١)، و﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ*الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:٣٥،٣٦)، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر:٧٤)، فالحمد يصدر عن المؤمنين شكرًا لله على تدمير المفسدين في الأرض والظالمين والطغاة والجبّارين، ونصر المستضعفين ولو بعد حين.

إنّ الإنسان -إذا أخذ الله تعالى منه قوى وعيه- يُصبح في وضع ناقص البشريَّة بمقدار ما فقد من نِعَمٍ وحواس خوّلها الله -تعالى- له، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يُلحق نفسه بـ«الحيوان الأعْجم»؛ لأنّ الحيوان أُعِدَّ ليكون حيوانًا ابتداءً، وليس الإنسان كذلك، فالتساؤل الذي أورده الله تعالى في قوله: "قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ" (الأنعام:٤٧) هو تساؤلٌ في منتهى القوة، فكأنّه يقول: أخبروني إن حدث لكم ذلك؟ وهو أمر يمكن أن يحدث لكم في أيّ وقت؛ فإنّ الذي خوّلكم هذه النعم هو نفسه الذي تكفرون به، وترفضون الإيمان به، وكذلك أخبروني لو أتاكم عذاب الله بغتة بدون مقدمات أو إنذارات، فإنّ بأسنا وعذابنا يمكن أن يأتي بياتًا أو نهارًا: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ*فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ*فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ*فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف:٤-٧) وقد يأتي عذابنا جهارًا نهارًا ظاهرًا، يشهد المفسدون المقدّمات كلّها، فلا يتوبون ولا يتذكرون حتى يصبحوا في قلب العذاب ووسط دوامته: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ

رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٨) كما حدث لفرعون وقومه، وقوم نوح وغيرهم، فعذابنا خاضع لمقاديرنا لا لأمانيهم ورغباتهم.

إنّكم -أيّها الظالمون المفسدون في الأرض- تطالبون بما ليس في مقدور الرسل أن يفعلوه، وليس من مهماتهم أن يستجيبوا لكم فيه؛ فمرَّة تطالبونهم بتعجيل العذاب الذي أنذروكم به، ومرَّة تطالبونهم بأن يأتوكم بالخوارق والمعجزات الحسِّيَّة بحسب شهواتكم ورغباتكم.

النجم الرابع: في بيان ماهية الرسل، وتوجيههم في منهج التعامل مع أقوامهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ*وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ*قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ*وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ* وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَكَذَلِكَ نفصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٤٨–٥٨).

إنّ الرّسل هم رسل الله و أنبياؤه، فالله هو مَن يحدِّد مهمّاتهم وحدودها ووسائلها، وقد جعل الله مهمّاتهم منحصرة في «الدعوة مصحوبة بالتبشير والإنذار». وفي قدرة الله المطلقة –لو شاء– أن ينزّل عليهم آيات تظل أعناق أممهم لها خاضعة: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء:٤) لكن في ذلك نوعًا من الإكراه لهم. وقد سبقت كلمة الله أن يأتمن الإنسان على «حريّة الاختيار». وللمحافظة على حرية الإنسان فقد قصر مهام المرسلين على دعوة الناس مع الإنذار والتبشير. فلا ينبغي لأحد من بني البشر أن يتوقع من الله _جلّ شأنه_ أن يفرض الإيمان بالرسل وما ينزله عليهم؛ لأنّه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩) ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ*وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأنعام:٤٨،٤٩).

وليبيّن ويؤكّد –تعالى– على ماهية الرسل وكيف جمع الله –سبحانه لهم بين الوحي والبشريّة يأمر رسولَه –صلى الله عليه آله وسلّم– أن يؤكد على قومه بشريَّته، ويؤكد على قدراته المحدودة، وعلى أنّ حمله لرسالة الله –جلّ شأنه– لا يُغَيّر من ذلك شيئًا: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠) قل لا أقول لكم عندي خزائن الله فلن تسألوني شيئًا إلا أعطيتم، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إنّ الرسالة قد نقلتني من عالم البشر إلى عالم الملائكة، ذلك –كله– لم يحدث، فأنا لست إلا

بشرًا رسولا، أتبع ما يُوحى إليّ من ربي، فأبصر وأسمع وأعقل، أمّا أنتم فتستمرون في العمى والظلمات والضلال البعيد، مع علمكم بأنّ الأعمى لا يستوي مع البصير، لكنّكم لا تتفكرون لتدركوا أنّكم في موقع الأعمى وأنا في موقع البصير بما أوحي إلي من ربّي.

ثم يأمر الله –تعالى– رسوله ألاّ يضيّع وقتًا مع أولئك العمي الذين لا يتفكرون، وأن ينذر بهذا القرآن الذين فتح الله قلوبهم وعقولهم إلى ما فيه من بصائر، فآمنوا بأنّ هناك بعثًا ونشورًا وحشرًا بين يدي الله؛ ولذلك اتخذوه –سبحانه– وليًّا وشفيعًا؛ هؤلاء –بهذه الاستعدادت لديهم– سيرتقون إلى مستوى التقوى، فلا تظنن أنّ الإنذار قاصر على أولئك المشركين الضالين؛ لأنّك: ﴿....إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر:١٨)، وهنا تتجاوز المقارنات ثنائيّة الأعمى والبصير إلى مجموعة كبيرة من الثنائيات المتقابلة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ*وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ*وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ*وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ*إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ*إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:١٩–٢٤)، فلا تبتئس، واعلم أنّك: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يس:١١)، إنّ الله –سبحانه– يأمر نبيّه أن ينذرهم بالفرار إلى الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات:٥).

ثم ينبّه إلى انقسام الإنذار إلى أقسام: فهناك إنذار للكفار والمشركين، وهؤلاء قلّ أن ينتفعوا بذلك؛ لعدم وجود الاستعداد للانتفاع بذاك الإنذار لديهم، وهناك إنذار وتبشير لأولئك الذين يتّقون ليستمرّوا، فلا يفترون ولا يغفلون ولا يلبسون إيمانهم بظلم، ولا تغرَّنهم الحياة الدنيا، ولا يغرَّنهم بالله الغرور.

ثم يحذر الله نبيه –صلى الله عليه وآله وسلّم– من أن يطرد أحدًا من أولئك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، وينذره –جلَّ شأنه– أنّه لو طردهم فسيسلك في عداد الظالمين، ويُبين له

أنّ المستكبرين من زعماء القبائل، الذين ينظرون نظرة استخفاف إلى أولئك الفقراء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ويريدون رضاه، فقد جعل الله -تبارك وتعالى- بعضهم لبعض فتنة وموضع اختبار، فكان يفترض بذلك الغني أن يشكر الله ويحمده وهو يشاهد نعم الله عليه التي حَرَمَ من مثلها كثيرين. إنها فتنة واختبار كثيرًا ما يسقط فيه أولئك المستكبرون، لأنّهم يقولون: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (الأنعام:٥٣) فكبرياؤهم وغطرستهم تجعلهم يفكرون أنّ لهم حق الاعتراض على الله —سبحانه وتعالى- وهو أعلم بالشاكرين.

وفي سورة هود، يقول هود لقومه، وقد واجه مثل الموقف الذي وَاجَهْتَهُ يا رسول الله مُحَمَّد: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود:٢٧)، فردّ هود عليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ*وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ*وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:٢٨-٣٠)، وهكذا ترى التشابه بين أولئك الكفّار والجبارين والمستكبرين في كل زمان وطرائق تفكيرهم وخصالهم مع أنبيائهم.

ثم تأتي آية ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤) ليقول -جلّ شأنه- لرسوله الكريم: إنّ هؤلاء هم المؤمنون المستحقون أن يُبشَّروا، وأن يُقال لهم: "سلام عليكم"، أمّا أولئك الكفار فينبغي أن يُنْذَروا، لعلّ الإنذار يلفت أنظارهم أو يؤثّر في قلوبهم القاسيّة، وإلا فإن أجل الله ماض فيهم لا محالة.

وفي ذكر التوبة في هذا السياق، وذكر لفظ "كَتَبَ" الذي يوحي بالإلزام تحفيز كبير لأولئك المؤمنين الذين جاؤوا الرسول –صلى الله عليه وآله وسلّم– مخبتين لله، غير مشركين به، فوجّه الله تعالى أنظار نبيه إلى تذكيرهم بالتوبة بعد إلقاء السلام عليهم، وتبشيرهم بقبولها قبل أن يأتوها، فلقد بشّر الله هؤلاء في هذه الآية وفي آيات عدة بالقبول، كما في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٧،١٨)، وفي ذلك من المنن والرحمة الكثير لمَن كان له قلب يعي.

والآية: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٥) تبيّن أنّ هذا القرآن المجيد لم يكتف ببيان منهج المؤمنين الصادقين ومناهج المسلمين، بل بيّن وأوضح سبيل المجرمين كذلك، وبذلك هدى الله الإنسان النجدين؛ ليختار، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٦_٥٨) تأتي هذه الآيات كتوجيهات من الله –تبارك وتعالى– لنبيّه الكريم في كيفيّة التعامل مع الشبهات التي يوردها الكفار والمنافقون؛ حيث يدعوه –تعالى– إلى بيان الخطوط العريضة التي يعمل الرسول من خلالها، والتي تحكمها إرادة الله تعالى، ويبيّن الصلاحيات التي أعطاها لنبيّه الكريم بناءً على بشريته وعبادته لله تعالى واصطفاء الله تعالى له في آن، فيدعوه أولاً إلى أن يبيّن لهم أنّ الله قد نهاه ونهى الناس كافّة أن يعبدوا تلك الأصنام التي يدعونها آلهة وأربابًا من دون الله، وألاّ يتبع أهواء هؤلاء المشركين وتمنّياتهم ورغباتهم القائمة على الباطل والفساد، وأنّ ما يدعونه إليه هو الضلال

بعينه الذي يخرج –مَنْ يطيعهم فيه– من دائرة الهدى إلى دائرة الضلال، وفي سورة الفرقان: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا*فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:١٨، ١٩) الأمر الذي يؤكّد على إيمان النبي بربه الكريم وأنّه هو نفسه أول المؤمنين.

ويدعوه ثانيًا إلى أن يعلن أنّه موقن بأنّه على بيّنة من ربه ومحجّة بيضاء، فقد بيّن له الله –تبارك وتعالى– الحق من الباطل في هذا القرآن، وتكذيب الكافرين له لا يجعله يغيّر موقفه وينصرف إلى الضلال الذي يدعونه إليه بعد إذ هداه الله؛ إذ البيّنة معه –صلى الله عليه وآله وسلّم– والحجة قائمة تقطع عليهم العذر، فقد جاءتهم البينة برسالته ليتلو عليهم هذا القرآن، فيقول لهم بكل قوة وبكل يقين: إنّني أنا صاحب البيّنة لا أنتم، والله أعطاني تلك البيّنة والصحف المطهّرة التي يُكتب القرآن بها وتحفظ آيات الله فيها، إنّه كتاب مرقوم، وكتاب مكنون، لا يمسّه إلاّ المطهّرون.

ويدعوه تعالى ثالثًا إلى أن يبيّن لهم محدوديّة الصلاحيات التي أعطاها الله تعالى له، وأنّ استعجالهم له بالعذاب لا معنى له؛ لأن الأمر بيد الله وحده ليس بيده هو. ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٨) فأنتم تستعجلونني بالعذاب الذي أنذرتكم به، ولو كانت لكم قلوب تعقلون بها لاستعجلتم الله –جلّ شأنه– الرحمة، ومع ذلك فإنزال العذاب أو الإنعام بالرحمة كل ذلك محصور في حكم الله جلّ شأنه، فهو الذي يقصّ الحقّ ويهدي إليه، ويأمرنا به، وهو خير الفاصلين حين يفصل بيني وبينكم، ولو أنّ عندي ما تستعجلون به، وقد بلغتم في إيذائي وإيذاء المؤمنين ما بلغتم لقُضي الأمر بيني وبينكم، ولن أكون ظالمًا لكم لو حدث ذلك، لأنّكم مَنْ بدأتم واستدعيتم ذلك كله، والله –تبارك وتعالى– أعلم بالظالمين.

النجم الخامس في تفرّده تعالى بالعلم والقدرة المطلقتين الأزليّتين:

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ* وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٥٩–٦٧).

يُؤَكّد الله –جلّ شأنه– في هذه الآية على تبرئة نبيّه –صلى الله عليه وآله وسلّم– مرة أخرى مما يتوهمون أنَّه جزء من مسؤوليَّاته، وهو قدرته على إنزال العذاب بهم؛ ذلك لأنّ الذي يقدر على هذا الأمر هو الله –تعالى– وحده الذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. فهو هنا يجادلهم في جوانب الألوهيَّة والربوبيَّة التي لا يملك إنسان أن يتجاهلها، فينتقل السياق بهم من التهديد إلى الوعيد إلى بيان القدرة لإثبات وحدانيته تبارك وتعالى. وهو أمرٌ يشاهدون آثاره فلا يستفيدون بها، ولا تخبت لها قلوبهم، فخزائن الغيب ومفاتحها عنده –جلّ شأنه– لا يعلمها إلا هو، وهو جلّ شأنه مَنْ يعلم ما في البر والبحر، فعلمه شاملٌ محيطٌ بالغيب والشهادة: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) بل ولا: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ:٣)، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ كما في سورة

البروج، محفوظ من كل ما يمس قدسيته، وقد أشير إليه في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٢٩)، والآيات: ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ*بِأَيْدِي سَفَرَةٍ*كِرَامٍ بَرَرَةٍ*قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (عبس:١٤-١٩)، وفي سورة يس قال: ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس:١٢)، والمراد به «اللوح المحفوظ»؛ لأنّه الأصل المحفوظ، ومنه ينزّل الله الملائكة بالروح من أمره؛ أي: بالوحي، كما في الآية: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل:٤).

ثم يبيّن تعالى آية أخرى من آيات قدرته التي تفرّد بها، وهي أمر متكرر نمارسه كل يوم، ألا وهو حالة النوم، فيبيّن لنا حقيقته الغائبة عنا، فهذا النوم الذي ننامه نعمة كبرى من الله تبارك وتعالى، هيّأ الله لنا سائر أسبابه، فيتوفّانا بالليل، وتلك حقيقة النوم، وقد نكون سقطنا في معاصٍ بالنهار لا يرضاها جلّ شأنه، بل تُغضبه، ومع ذلك فلا يتوفانا بالليل -الوفاة الأخيرة- مع علمه بما اقترفنا بالنهار، بل يبعثنا في اليوم التالي ليُقضى أجل مسمى هو الذي حدده -جلّ شأنه- لنا، ثم إليه مرجعنا بعد ذلك، ثم ينبئنا يوم القيامة بما كنّا نعمل في هذه الحياة الدنيا، وهو القاهر فوق عباده؛ أي: الغالب المتحكم في الخلق كله، كما ورد في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وهم الكرام الكاتبون كما في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ*كِرَامًا كَاتِبِينَ*يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:١٠-١٣)، وهم -في الوقت نفسه- الذين يراقبونكم فيه، ويسجلون عليكم كل ما تعملون في صحائف أعمالكم، وكذلك هم مَن يحفظونكم من أمر الله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد:١١)، فالملائكة جماعة يعقب بعضهم بعضًا لحراسة الإنسان من الله، فيجنبونه السوء ويحفظونه من الحوادث إلا ما قدّر الله أن

يصيبه، وهم في الوقت نفسه يُحصون أعماله، واقرأ قوله -تعالى- في سورة ق: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، ثم يقول جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، أي في واجباتهم، وذلك تمهيدًا للعرض على الله تعالى يوم الحشر، وهو يوم رد الناس إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم في شأن كل إنسان: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام: ٦٢)

وتتجلّى رحمة الله -جلّ شأنه- على عباده أنه بعد ما ذكر لهم ما ذكر من الآيات والحساب والحشر والملائكة الحفظة، ويوم يقول الإنسان: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف:٤٩)، فإنّه يذكرهم بآيةٍ أخرى من آياته لعلها تثير في أنفسهم -إذا لم يقض الصدأ عليها- السؤال التالي: هل لنا من نجاة؟ فيذكرهم بما يعايشونه في عالم الحياة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من أهوال وشدائد: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ تذلّلاً بالقول، فيكون جهرًا في الغالب وخفية في القليل النادر، وتؤكدون على أنّه لو أنجاكم من هذه لتكونن من الشاكرين، فيخبرهم -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمره -جلّ شأنه- قائلا: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٦٤) ثم يأتي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ*وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ*لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٦٥-٦٧) لتبين أن الكروب والشدائد غير قاصرة على ما قد يحدث في ظلمات البرّ والبحر؛ لأنّ هناك أنواعًا أخرى من الشدائد في قدرته سبحانه أن يبعثها عليكم أو يُسلمكم إليها، وهو -سبحانه- وحده القادر على أن ينجيكم منها، وهذه الأخطار أشد وأقسى؛ فما دمتم تحيون على الأرض فإنّ الأخطار محدقة بكم، فلا تظنوا أن نجاتكم من كرب ما في ظلمات البرّ أو البحر تعني نجاة مطلقة لا يعقبها خطر. فهناك

أخطار ومصائب وكروب قد تأتي من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، فتنفجر البراكين والزلازل، وما إليها، أو تأتي الأخطار من بشر مثلكم يختلفون معكم، فتلبسون شيعًا، ويذيق بعضهم بأس بعض!! ففي خزائنه -التي لا يملك مفاتحها غيره سبحانه- الكثير الكثير، وهو -سبحانه- الذي يصرّف الآيات ويعرضها على عقولكم وقلوبكم لعلّكم تفقهونها، وتفهمونها، وتستوعبون دروسها!!.

إنّ قومك من القرشيّين وأهل مكة قد كذّبوا بالحق الذي أنزلنا عليك، وتكذيبهم لا يغيّر من هذا الحق شيئًا، ولا يؤثّر تكذيبهم في كونه حقًّا، ونحن نصرّف لهم الآيات ونقدمها لهم حججًا ناصعة بطرق متنوّعة، أمّا أنت فعليك البلاغ، ولست عليهم بوكيل يحمل عنهم ما لا يريدون حمله، وعليك بالصبر، فإنّ لكل خبر زمانًا أو مكانًا يقع فيه عندما يأتي موعد تأويله ووقوعه، وآنذاك سيكون صدقه معلومًا لهم ولغيرهم.

النجم السادس في بيان أحوال المستهزئين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ * قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:٦٨-٧٣).

هناك صنف من أولئك الذين يكذّبونك، عابثون هازلون هازئون. يحسبون أنّهم خلقوا عبثًا، ووجدوا في هذه الحياة الدنيا سدًى، فاتخذوا كل شيء لهوًا ولعبًا، فدنياهم لعب ولهو، ودينهم لعب ولهو كذلك. إذا اقتربوا من القرآن المجيد فإنّهم يقتربون منه اقتراب الخائفين، الذين يجعلون الآخرين يظنون أنّهم سيدخلون الماء أو سيمارسون السباحة، وهم لا يريدون إلا أن يخوضوا في الشاطئ ليلهوا ويلعبوا ويعبثوا ابتغاء التسلية. وأكثر استعمالات القرآن لهذه المادة اللغويّة استعمالها فيما يذم الشروع فيه، كالآية التي معنا، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ (التوبة:٦٥)، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التوبة:٦٩)، وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١)، وقوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (المدثر:٤٥)، فهم يُسارعون في كلّ باطل أو زُور ليخوضوا فيه لعلهم يصرفون الناس عن هذا القرآن ويصدّونهم عنه، هؤلاء لا يستحقون منك إلا الإعراض عنهم وإهمالهم، وعدم مجالستهم، ولو حدث وأنساك الشيطان وجلست إلى بعضهم فعليك أن تترك ذلك المجلس فور تذكّرك، فهم ظالمون بِشِرْكهم، وظالمون بسلوكهم، لا يليق بمؤمن ولا مؤمنة مجالستهم، أو تكثير سوادهم، وهؤلاء حسابهم عند الله عسير، وهو حساب لا يتجاوزهم إلى المتقين الذين قد يُنسيهم الشيطان فيجالسونهم، فإذا تذكّروا انصرفوا عنهم، ولكن هذا الإهمال لهم والإعراض عنهم تذكير لهم ولسواهم بما هم عليه، إن لم ينتفعوا به فإنّ فيه إقامة للحجة عليهم، وفيه كذلك ذكرى للمؤمنين أنفسهم بما يجب عليهم تجاه القرآن المجيد، فالتقوى تتحقق بتعظيم القرآن والإيمان، والاعتصام به واتباعه وعدم هجره.كما أنَّ هناك أقوامًا آخرين ينبغي أن يُتركوا ويُهملوا، إذ إنّ أوقاتك وأوقات المؤمنين أجلّ من أن تضيَّع مع هؤلاء الضائعين المضيَّعين، وهم الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، و«اللعب»: فعل صاخب، لا يقصد صاحبه من ورائه تحقيق أي مقصد صحيح، سواء تحصيل نفع أو دفع ضرر، كأفعال الأطفال، لكنَّ أفعال الأطفال بريئة، وهذه يغلب أن يشوبها القصد السيء. وأمَّا «اللهو»: فهو ما يشغل الإنسان عن المهم من شأنه، ظنًّا منه أنَّه يجد في ذلك تسلية، واغتراره

بالحياة الدنيا وتوهمه أنَّها باقية يجعله مهيئًا لإضاعة الأوقات، فذكّرهم يا رسول الله بالقرآن بسرعة زوال هذه الحياة وانقضائها قبل أن يهلكوا، وتبسل أنفسهم، وتحبس في جهنم بما كسبت، وذكّرهم بأنّه لا وليّ لهم من دون الله ولا شفيع، وليس لدى أي نفس ما تُفتدى به إلا ما تدعوهم إليه الآن، فإنّها إن تعدل كل عدل -لو كان ذلك ممكنًا- لا يؤخذ منها لو فُرض أنّ لديها ما يُفتدى به، فلا فداء في ذلك اليوم، أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا؛ أي: أهلكهم الله بسبب عملهم السيء، الذي يؤدي إلى حبسهم في جهنم، لهم شراب من حميم يُصهر به ما في بطونهم والجلود، وعذاب أليم بسبب كفرهم، وإعراضهم عن الهدى بما جاءهم.

وقل لهم على سبيل الموعظة والحوار: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ من أصنام وأوثان وأرباب متفرقين، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فضلا عن أن يملكوا ذلك لسواهم، وآنذاك سيكون مَثَلنا مَثَل من استهوته الشياطين في الأرض، فحملته على اتباع هواه والسير على غير هدى، وله أصحاب مهتدون يدعونه إلى الهدى: "ائتنا"، فلا يستمع إليهم بعد أن استهوته الشياطين، ومثل هذا ما كان يمكن أن ينقذه إلا هدى الله؛ لأنّ هدى الله هو الهدى الحقيقي الذي لا يُقاوم مكائدَ الشيطان سواه: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: «أن تسلم»، فاللام بمعنى «أن»، وما بعدها في قوة المصدر، ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وهو -وحده- أهلٌ لعبادتكم وتقواكم؛ لأنّه إضافة لذلك كله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

النجم السابع في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام والحجّة التي آتاها الله تعالى– له على قومه لإثبات وجوده ووحدانيته –عز وجل–، والمزج بيم أدلة الخلق والإبداع، وطروء النقص على سائر الخلق لإثبات التوحيد بكل مستوياته:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:٧٤-٩٠).

بداية عرض الحجة التي آتاها إبراهيم على قومه، ورفعه بها درجات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، وقد عطف على الآية (٦٦)، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، وفي ذلك ربط بديع بين سيدنا إبراهيم –عليه السلام- وسيدنا مُحَمَّد –صلى الله عليه وآله وسلّم- وبين قوم إبراهيم –عليه السلام- وشركهم وضلالهم، وقوم مُحَمَّد –صلى الله عليه وآله وسلّم- وما هم عليه.

والأوّلون ينتسب إبراهيم إليهم، وهؤلاء –قوم سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلّم- ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم، وما فعله قوم إبراهيم –عليه السلام- معه، فعل العرب مثله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم؛ ولذلك فإنّ الحجج التي احتج بها النَّبيَّان العظيمان، والرسولان الجليلان، متضافرة متساندة، يُعزِّز كل منهما حجج الآخر لدحض شبهات المتقدمين من المشركين والمتأخرين منهم.

ولأنّ سياق السورة سياق احتجاج –جاءت بعد محاولات هداية وإقناع كثيرة- اتسم الحجاج بنوع من القوة التي لم تُعهد فيما مضى، ففي الماضي جاء قوله تعالى في حوار إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا*يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا*يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا*يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا*قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا*قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم:٤٢-٤٧)، ومع أنّ ما أوردته سورة الأنبياء من حجاج اتَّسم بشيء من الشِّدَّة، لكنّه لم يكن بهذه الصورة، واتل تلك الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي

أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ*قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ*قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مبين*قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ*قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ*وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ*فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ*قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ*قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ*قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ*قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ*قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ*فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ*ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ*قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ*أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ*قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ*قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ*وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ*وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ*وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ*وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٥١-٧٣)، وكذلك آيات سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ*قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ*قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ*قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ*فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ*الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ*وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ*رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٣)، وفي سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ*إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ*أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ*فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ*فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ*فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ*فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ*فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ*مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ*فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ*فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ*قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ*قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ*فَأَرَادُوا بِهِ

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ*وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ*رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ*فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ*فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ*فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ*وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ*قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ*إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ*وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ*وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ*سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ*كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ*إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ*وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ*وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات:٨٣-١١٣).

أمّا هنا في سورة الأنعام، فإنّ الله -تبارك وتعالى- يُري -بنفسه- إبراهيمَ ملكوت السماوات والأرض، ليصوغ له الحُجّة القاطعة، والدليل الساطع القائم على الاستدلال بالموجودات، تلك التي اتخذت آلهة ضلالا وانحرافًا عن وجود الإله الحق الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لتصبح تلك الموجودات المؤلَّهة حجّة مزدوجة تدل على بطلان تأليهها من ناحية، والاستدلال بنقصها وأفولها على وجود من جعلها آفلة، وهو الإله الحق الذي لا إله غيره، ولا رب سواه لها ولغيرها.

وإراءة الله -تعالى- إبراهيم «ملكوت السماوات والأرض»، أي: كل ما يصحّ أن يندرج تحت «ملك»؛ لأنّ «ملكوت» و«جبروت» وأمثالهما صيغ مبالغة، وهذه المبالغة تتجلى بالعموم والشمول، وأول المستفيدين من هذا إبراهيم نفسه؛ ليكون بهذه الإراءة الإلهيّة له من «أهل اليقين» التام، ويطمئن قلبه بحجته وسلامتها، فيقدّمها لقومه وهو عالم بها علمًا يقينيًّا لا تخالطه شائبة من شك.

وإذ بلغ إبراهيم ذلك تقدّم إلى قومه -الذين يعبدون النجوم والكواكب، ويصوّرون لها أصنامًا - وتلك ديانة الصابئة والكلدانيّين من قوم إبراهيم، وهي ديانة كانت منتشرة آنذاك في جنوب العراق، حيث مدينة «أور» مسقط رأس إبراهيم- فاختار أشد الكواكب إضاءة ولمعانًا في ليلة من اللّيالي، ويبدو أنَّه من الكواكب التي كانوا يعظّمونها؛ فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، فلمعانه وبريقه وتوسّطه كبد السماء يجعله

الأكثر حظًّا في منحه صفة الربوبيَّة والخلق والتدبير، وانتظر، وأمل قومه أن تنتهي أزمتهم معه، فكأنّهم تجاوبوا ونظروا معه إلى النجوم والكواكب، فلمّا أفل وغاب، قال عليه السلام: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾، إذ مَنْ الذي يتولى شؤون الربوبيَّة والتدبير إذا غاب؟ كما أنّ الأفول دليل نقص، وما دام قد أفل وانصرف فمَنْ الذي صرفه وجعله يأفل؟ أليس ذلك أولى بالربوبيَّة منه؟! فقوله –عليه السلام– من شأنه أن يُثير كل تلك الأسئلة في أذهانهم، شاؤوا أم أبوا!! وكأنّه –عليه السلام– وقد استدرج أذهانهم إلى التساؤل والتفكير، تركهم في حيرتهم وتساؤلاتهم الكثيرة: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ وابتدأ شروقه سارع إلى القول: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام:٧٧) هنا يبدو –عليه السلام– كمن يحدّث نفسه، ثم يُبدي نوعًا من القلق والاتِّجاه نحو الربّ الحقيقيّ، ربّ الطبيعة والإنسان، ليمنّ عليه بالهداية، إذ إنّ جهوده وبحثه بنفسه لا يبدو أنّها سوف توصِّله إلى الإله الحق؛ وفي ذلك تعريض بقومه، وبيان أنَّهم ضالّون في عبادة هذه الكواكب الآفلة الناقصة، والتي تعتمد على ربّ لا شك أنّه هو الربّ الحقيقيّ الخالق المسيّر لها في بزوغها وأفولها. ولمّا انقادوا وراءه إلى تلك المشاهدات والأدلة الحسِّيّة انتظر بزوغ الكوكب الأكبر، «الشمس»: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٧٨) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٩). لقد تدرّج –عليه السلام– معهم وقادهم عبر مسيرة مليئة بـ«الشك المنهجيّ»؛ ليرفع عن قلوبهم وعقولهم حُجُب الأفكار المسبقة والمسلمات الخاطئة التي لا دليل عليها، ويستبدلها بمسلّمات سليمة: فالرب لا يمكن أن يأفل أو يغيب، وما ينبغي له ذلك.

وقد حاول عليه السلام –وهو يسير بأناة، ويقود قومه بتؤدة نحو تخليصهم من وثن «ضغوط المجتمع»، وهو وثن يصنعه المجتمع على هواه، وقد يستفيد من تاريخه وتراثه وثقافته وأيَّة عناصر أخرى، ليحول بين الأفراد وتجاوز ذلك الوثن أو الخروج عليه. ومن مظاهر تحكّم ذلك الوثن المجتمعيّ الخوف من

المجتمع، وموقفه في حالة المخالفة. فحاول إبراهيم –عليه السلام– العمل على تشغيل قوى وعيهم، وجلاء فطرهم، ودفعهم إلى استعمال عقولهم.

إنّ الدروس التي تقدِّمها هذه الحجة –التي آتاها اللهُ إبراهيمَ على قومه– دروس كثيرة وهامَّة جدًّا، وهي التي ينبغي أن يعتمدها دعاة التوحيد ليصلوا بالناس إليه، ويمهِّدوا لهم السبيل ليبلغوا مستوى ومرتبة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، مبتعدًا عن الباطل، مجافيًا للشرك وأهله، مائلاً عن سائر الأديان إلاّ دين الحق الذي اختاره الله لعباده، وأرست دعائمه أمّة الأنبياء الواحدة. والموحّد يتجه إلى الله –سبحانه وتعالى– بمحض اختياره وإرادته فيتجلى معنى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

فبعد تلك الحجة البالغة مازال القوم يحاجّون إبراهيم ويجادلونه، فيقول لهم –مستغربًا– ذلك اللجج في الجدل: ﴿...أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، فيلجؤون إلى سلاح العاجزين هو الترهيب من آلهتهم الصمّاء البكماء العاطلة، والتخويف بها، فيعلن إبراهيم في مواجهة ذلك النوع من الإرهاب: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾، ولو حدث لي أيّ شيء فلا تتوهموا أنّه قد حدث بفعل أصنامكم وآلهتكم المصطنعة، بل يكون ذلك بمشيئة ربي وإلهي، الذي يعلم ما يصلح لي وما لا يصلح؛ لأنّه ذو علم شامل محيط، فإذا علم أنّني بحاجة إلى بلاء أو ابتلاء فهو العليم الخبير الذي يعلم مَنْ خلق: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ويُجيب –جلّ شأنه– على ذلك التساؤل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فالذين آمنوا إيمانًا خالصًا –لم تَشُبْه شائبة شرك– أولئك لهم الأمن في الدنيا والآخرة؛ أمن من القلق والاضطراب والانحراف عن الصراط في الدنيا، وأمن من عذاب الله وحسابه في الدار الآخرة.

قوله تعالى: " **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**" «الأمن» مفهوم قرآنيّ من أهم وأخطر المفاهيم التي تشتدُّ حاجة أمّتنا إلى الوعي بها وفهمها، وإدراك طبيعتها، وكيفيَّة تحقيقها في حياة الأمّة، وقد ورد في القرآن المجيد بصيغ عديدة، منها المصدر، كما اشتقّ منه اسم «الأمانة» و«الإيمان». و«الأمن» طمأنينة النفس، وانعدام الشعور بالخوف والقلق. ولأهميّة مفهوم «الأمن» عدّه بعضٌ كلمة «التوحيد»؛ لأنّ الأمن لم يكن يتحقق إلا بها. وقال بعضهم: إنّه «العدالة»؛ لأنّها الركن الَّذِي لا تتحقق الطمأنينة إلا به، وقد امتن الله –تعالى– على البشريّة «بالحرم الآمن»:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت:٦٧)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة:١٢٥)، و قد امتنّ الله على قريش بأنّه: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٤). و«المأمن» المنزل الَّذِي يطمئن الإنسان فيه، ويشعر بالسكن والطمأنينة، ويُزال به الخوف لوجود مَا يؤدّي به إلى الشعور بحالة «الأمن». ووسائل تحقيق الأمن كثيرة، أهمّها أن تكون هناك منظومة أخلاقيّة يلتزم بها أبناء المجتمع، فيطمئن الإنسان في إطار هذه المنظومة الأخلاقيّة؛ لأنّه لا يتوقع من أيّ أحد أن يتجاوز عليه، أو يتعدى عليه، أو يصادر حقوقه. وكذلك نظام العدل يجعل الإنسان آمنًا مطمئنًا للعيش في ظلاله، لا يخشى أن يضيَّع له حق، أو يفرض عليه شيء بظلم. وقد يجد الإنسان في «السِّلم» أمنًا، ولا يجد ذلك في حالة «الحرب». و«استجارة غير المسلم» بالمسلمين ليسمع كلام الله –تعالى– توجب عليهم إجارته حتى يسمع كلام الله، ثم عليهم أن يقوموا بحمايته إلى أن يصل إلى مأمنه؛ أي: إلى المكان الَّذِي يأمن فيه على نفسه وديارة وديار ذويه. وقد جعل الله –تعالى– بيته المحّرم آمنًا، بحيث يشعر داخله بـ«الأمن والطمأنينة» في قلبه ونفسه ووجدانه؛ ولذلك فقد نهى الله –جلّ شأنه– أن ينفّر صيد الحرم، أو يقطع شجره، أو يعرّض اللّائذ به للخوف؛ ليكون نموذجًا للأرض –كلّها– التي استُخلف آدم وبنوه فيها ليقوموا بعمرانها بالأمن والحق والعدل: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، ولا يمكن تحقيق مقاصد الشارع

الحكيم في «التوحيد والتزكية والعمران» بدون حياة آمنة مستقرة، يسودها «السلام والأمن»، وتغمرها «الطمأنينة».

و«الأمن» مطلب إنسانيّ عالميّ، سلك البشر مختلف السبل ابتغاء الوصول إليه، لكنّ تلك السبل والوسائل التي توسَّلوا بها لتحقيق هذه الغاية في بلوغ «حالة الأمن» كانت جلّها -إن لم تكن كلّها- مناهج إنسانيّة وطرقًا بشريّة نسبيّة. لقد ظنّ بعضٌ أنّ «الأمن» يتحقق بالليبراليّة، وقد تحقق الليبراليّة شيئًا منه؛ ولكنّها لا تحقق الأمن كلّه. وهؤلاء -بعد أن ركّزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنسانيّ للذات الإنسانيّة حول نفسها- سارعوا بتبنِّي الليبراليّة « libéralisme » إطارًا لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت اللّيبراليّة وتأصَّلت بالفرديّة «individualisme»، ثم سوّغت «الفرديّة» بالنفعيَّة «utilitarianism »، وأصّلت «النفعيّة» بالنزعة «الأدائيّة» و«الأداتيّة» أو «العمليّة»، واتخذت هذه النزعة «الآليّة» أو «الأداتيّة» instrumentalisme نهجًا لتحقيقها. وأمام مضاعفات «إطلاق الفرديَّة»، وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات، برزت «الديمقراطيَّة democracy» باعتبارها حلا موهومًا أو مفترضًا في مجال «تقنين الصراع» واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع. فلم تكن «الديمقراطيّة» -وليس من طبيعتها أن تكون- حلا للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشريّة للدخول في السلم كافّة في سائر جوانب نظمها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة؛ إذ إنّ مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع، وهذا الاستيعاب كثيرًا مَا يتم بشكل وهميّ!! حيث يُخيَّل للإنسان -في الإطار الديمقراطيّ- أنّه شارك في صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه، والتعبير عن النفس شيء، والمشاركة في صنع القرار شيء آخر، والمعطيات التي تؤثر في صنع القرار كثيرة متعدّدة؛ ولذلك

فإنّ كثيرًا من الرؤساء يجدون أنفسهم –شاؤوا أم أبوا– عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه في برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون ولا يملك منتخبوهم شيئًا. لقد تحوّل الإنسان –من خلال «الديمقراطيَّة»– إلى أداة إنتاج واستهلاك، يُدار –ديمقراطيًّا وبرضاه التام– بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يلفت النظر، وباعتبارها أحزابًا سياسيّة أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها، وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرى، وبذلك تحوّل «المذهب الإنسانيّ» –الَّذِي أقيم على «مركزيّة الإنسان»– إلى مجرّد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته، منقطعًا عن ربِّه، وعن محيطه وجذوره، فاقدًا لكل مَا كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في «عبثيَّة وجوديَّة» تلقي به إلى مجاهل «الفراغ العدميّ»، والَّذِي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئًا، فهو لا يدري أكثر من أنّه توافر له الطعام والجنس، ودراسة أحوال الشعوب –التي يسودها هذا النظام– كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة، وإن تبجّح قادتها بخلاف ذلك. إنّ شخصيّة مثل هذه –إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصيّة أو الكينونة الإنسانيّة شيء– مستلبة الوجود تمامًا.

لقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان «**حيوانًا إعلاميًّا**»، تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته؛ لتشخّص له كل شيء –إعلاميًّا– بكل مَا لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يُشحن أو تبنى شخصيَّته تربويًّا ولا حضاريًّا، ولا دينيًّا، بل إعلاميًّا؛ لأنّه –بالإعلام– يسخَّر لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفيّة فيه التي يدار الإنسان بها، فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام، أينما توجهه –خارج ذلك– لا يأتِ بخير، إلا مَا يفرضه الثلاثيُّ المذكور، ومع ذلك يُخيَّل إليه أنَّه شريك فِعْليٌّ أو مساهم حقيقيٌّ في القرار السياسيّ من خلال ذلك الصوت

الَّذِي يُدلي به في مواسم الانتخابات، وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكيُّ الراهن نموذج لذلك، حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة -بكل معانيها القديمة والحديثة- تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك.

هناك الفريق الثاني الَّذِي اختار أتباعه للخلاص الإنسانيّ سبيلا آخر، حيث توهّموا وجود الخلاص في دائرة «الحتميّات التاريخيّة» و«الماديَّة الجدليّة»، التي زعموا أنَّهم اكتشفوها، والتي تمر من أقنية «الصراع الطبقيّ»، وهؤلاء لم يكونوا أقل استلابًا للإنسان من اللَّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جرّدوا الإنسان -كذلك- من كينونته، ووضعوه في إطار نمطيَّة أحاديَّة مبوتقة، لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبّر عن مصالح الشعوب، وفي إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلّها حضارات طبقيَّة لم تأخذ «الشغيّلة» فيها نصيبًا. وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومَنْ إليهم من البرجوازيَّين، وكل دين هُوَ أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن. ويمكن للفنون -من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها- أن تلبي الحاجات النفسيّة والروحيّة لمن يجد في نفسه حاجة لذلك، وبلا مواربة. وبعد خمس وسبعين عامًا أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها، وارتدّت تلك «الحتميّات التاريخيّة» و«الماديَّة الجدليّة» على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفككَّ الحزب والإمبراطوريَّة التي أقاموها، قبل أن يبني الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّة الَّذِي وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان مَا عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوفيتي المقبور بالعصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة؛ لتعلن أنّ النظريّات التي قامت على «الماديَّة الجدليّة» و«الحتميّات

التاريخيّة» لم تستطع استئصالها أو تغييرها، لكنَّها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد في اغتنامها؛ لتعلن أنّها كانت أقوى من تلك النظريَّات التي زعموا أنّها نظريّات خلاص.

والآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢) قد بيّنت بجلاء ووضوح قاعدة الأمن ومنطلقاته، وما لا يمكن أن يتحقق الأمن إلا به، وكأنّها قد قدمت لنا قاعدتين أو دعامتين؛ الأولى هي الإيمان، والثانية نبذ الظلم وعدم الخلط بين الإيمان والظلم بكل مستوياته وأنواعه، ظلم الإنسان لربه بأن يُشرك به غيره، وظلم الإنسان لنفسه بتجاهل نشأتها وصيرورتها ومصيرها، والانغماس فيما نذر الشيطان نفسه لاستدارج ابن آدم إليه وإلى الانغماس فيه من المعاصي والشهوات، وظلم الإنسان لأمته بتجاهله لواجباته نحوها، وظلم الانسان للأرض بعدم إحيائها. وإذا كان رسول الله -ﷺ- قد نبّه في بعض ما رُوي عنه إلى أنّ الإيمان بضع وسبعون شعبة، فإنّ الظلم شعب كثيرة كذلك، ولا بد من تجنبها لتحقيق الأمن النفسي والأمن والسلم الاجتماعيين، والأمن والسلم العالمي، والآية الكريمة ترسم للبشريّة سُبل الوصول إلى الأمن والسلام وتحقيقهما بناء على هاتين الدعامتين: تحقيق الإيمان الخالص، ونبذ الظلم بكل أنواعه، فذلك سبيله، ولقد امتن الله -تبارك وتعالى- على قريش بأمرين: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. فلو أنّ الأمة أدركت واجباتها وقامت بدورها، واتصفت بما ندبها الله للاتصاف به من وسطيّة وخيريّة وشهادة على الناس لتغيرت أحوالها وأحوال العالم كله من حولها، لكن تخلّفها وتراجعها وتجاهلها لدورها وتوقفها عن حمل رسالتها إلى العالم كله أدى إلى خسارة العالم والبشريّة خسائر فادحة لا يمكن لها أن تُعوّضها إلا بالاتفاق على الهدى والحق والإيمان ونبذ الظلم؛ ليتحقق لها الأمن والسلام وتدخل في السِلم كافة، وتتخلص من القلق والاغتراب والعدوان وما يجرّه من ويلات.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:٨٣). تلك هي الحجّة البالغة التي آتاها الله إبراهيم لينصره على قومه، ويرفع بها درجته بين الرسل كافة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة:٢٥٣).

إنَّ نصر الله -تعالى- إبراهيم -عليه السلام- قد تجلّى في جوانب ثلاثة. الجانب الأول هو «الحجّة» التي آتاه الله إيّاها ليدحض بها شركهم وباطلهم، بحيث تنقطع عمليّات شغبهم الذي يزعمون أنّه حجج يحتجون بها على باطلهم. والجانب الثاني هو «رفع درجاته وترقيته» لكي يدرك الناس تقدير مولاه -جلّ شأنه- ونصره وتكريمه له، كما يمنح الملك القائد المنتصر أوسمة وأنواطًا لتكريس الاعتراف بانتصاره في معركة فاصلة، وإشاعة ذلك، إضافة إلى المعاني الأخرى التي يحملها التكريم الإلهي. أمّا الجانب الثالث فهو «وهب له إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» والأنبياء من ذراريهم.

ولن نُعن بترجمة أحد منهم بأكثر من ترجمة القرآن التي لم تتجاوز ذكر اسم النبيّ واسم قومه، وأحيانًا اسم الكتاب الذي أنزل عليه أو الصحف، ثم أهم صفحات جهاده قومَه ليؤمنوا، وعناوين الموضوعات الأساسيّة التي جاءهم بها، وذلك لأنَّه ليس بين أيدينا من المصادر التي يمكن الاستفادة بها للترجمة لهم -بما يزيد على ما في القرآن المجيد- سوى التوراة وما بُني عليها، واستند إليها من المراجع، وليس من منهجنا الرجوع إليها؛ لأنّنا معنيّون بـ«تفسير القرآن بالقرآن» فقط، وليس تفسيره مطلقًا أو بقصص بني إسرائيل. وقد ذكر الله -تعالى- هؤلاء المحسنين الصالحين الذين فضّلهم الله على العالمين وهداهم واجتباهم، وأسماء كثيرون منهم معروفة متداولة في جزيرة العرب بتأثير «الثقافة الشفويّة» المتدوالة

-آنذاك- وغيرها، وكأنّه يقول للعرب: كل أولئك الذين تعرفون بعضهم موحّدون لا يتقبّلون من شرككم شيئًا، فلم لا يسعكم ما وسع هؤلاء.. فتؤمنوا؟! لكنّ بعض ما يُهمنّا -هنا- هو أنّ الله -تعالى- أثبت بنوّة بعضهم، وذكر هؤلاء الأنبياء، وعلينا أن نؤمن بهم كما ذُكروا في القرآن المجيد دون زيادة أو نقص. أمّا النبيّ الخاتم ﷺ فواجب على كل مسلم ومسلمة الإيمان به تعيينًا ومعرفته تفصيلاً، ومن لطف الله أنّ القرآن المجيد قد عرَّفنا تفصيلاً به وبقريته التي أخرجته -أم القرى- وبقومه ومهجره وأهل بيته وأصحابه وصفاته وأخلاقه[١٩]. والذي نؤمن به وندين به أنّ مَنْ يُنكر نبوّة معيّن ممن سمّاهم القرآن المجيد أنبياء في سور «النساء وهود والأنعام والأنبياء ومريم» وغيرها، مع تحقّق علمه بذلك، وتعمّده الإنكار بعد المراجعة والتوضيح، فإنّ ذلك الإنكار يكون كفرًا. وقد اختلف أهل العلم في عدّ «ذي الكفل» بين النبيّين، فذهب بعضٌ إلى أنَّه نبيّ، وذهب آخرون إلى أنَّه ليس بنبيّ؛ لأنّ اسمه ذُكر في سورة الأنبياء في عدّاد الصالحين فقط، ولم ينصّ القرآن المجيد على نبوّته، أمّا آدم فقد اتفقوا على كونه نبيّا.

وقد امتنّ -جلّ شأنه- علينا مبيّنًا أنّ هذا النوع من الهدى هو هدى الله، لا هدى الآباء والسادة والكُبراء الذين يضلّون ويُضلّون مَنْ يتّبعهم، إنَّه بهدى الله الذي يشمل الذرّية والأزواج والآباء والأبناء والإخوان، أمّا ما يجب علينا الإيمان به فهو أنّ الله -تعالى- أرسل رسلاً مبشّرين ومنذرين، ونبّأ

---

[١٩] وقد بالغ ناظمٌ نقل أبياته إبراهيم البيجوري في شرحه على جوهرة التوحيد، وهي قوله:

حَتْمٌ عَلَى كُلّ ذِي التّكْليفِ مَعْرِفَة ... بِأَنبيَاءٍ عَلَى التّفصِيلِ قَدْ عُلِمُوا

فِي رد تلك حجتنا مِنْهم ثَمَانِيَة ... مِنْ بَعْد عَشْر وَيَبقَى سَبعة وَهُمُو

إِدْرِيس، هُود، شُعَيْب، صَالِح، وَكَذَا ... ذُو الكفل، آدم، بالمخْتَار قَد خُتِمُوا

فإنّ قصد الناظم بـ«حتم» هو فرض أو واجب، فهذا ما لا نقبله ولم يوافقه عليه أحد. أمّا إن أرادوا «الاهتمام» الذي لا يليق إهماله، فمقبول، وإن لم تساعد عبارته عليه.

أنبياء كثيرين نؤمن بهم كما ذكروا في كتاب الله، لا نزيد على ذلك، ولا نُضيف إلى ما قصّه الله علينا في كتابه الكريم؛ لئلا نُستدرج للسقوط في الإسرائيليّات وما فيها من أساطير أذهبت الكثير من بهاء النبوّة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام:٨٩)، ففيها نوع من التخفيف عن النفس الطاهرة نفس رسول الله ﷺ، فإنّ كفرهم بالرسالة لم يضرّ بها، فقد أُسند الإيمان بها وتأييدها وتبنّيها والدفاع عنها إلى قوم ليسوا بها بكافرين، وهم خير من هؤلاء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ (الأنعام:٩٠)، أولئك الأنبياء المرسلون الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة هم الذين هدى الله، فبهداهم اقتده، فأنت خاتم النبيّين، ومتلقي الكتاب المصدّق لما أنزل عليهم، والمهيمن على ما أُوحي إليهم، فلست بدعًا من الرسل، بل جمعت لك هدى الأولين وتجارب السابقين، وأكملت لك الفضائل؛ ليجتمع الهدى فيك، فهداك خلاصة هداهم، وكتابك جماع ما أُوحي إليهم[٢٠]

---

[٢٠]– قد استدل القائلون بأنَّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ بهذه الآية على ما ذهبوا إليه. وعزّزوا استدلالهم هذا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النحل:١٢٣)، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى:١٣)، وهي مسالة طويلة الذيل أكثر الأصوليُّون الأخذ والرد فيها. فراجعها مبسوطة في نحو المحصول (٣/٣٦ – ٢٧٥) و(المجلد الثالث من التنوير: ٣٥٨ –٣٥٩)، وخلاصة المسألة أنّ الشرائع السابقة لها ثلاثة أحوال: فهناك شرائع لم نعلمها إلاّ من كتبهم، ورواة أخبارهم ولا خلاف بين علماء الأمّة المسلمة أنّنا غير مكلفين بها لعدم صحة النقل والشك فيه. وقسم أجمعت الأمّة على أنّنا وهم مكلفون به مثل: «التوحيد والعدل والأمانة والتزكية والعبادة» وما إلى ذلك من أصول سلوكيّة وأخلاقيّة وعباديّة.

وقسم نقل شرعنا عنهم أنهم تعاملوا به وكان جاريا العمل به لديهم، وهذا –وحده– موضع اختلاف علمائنا، وقد اشترطوا لاعتباره شرعًا لنا أو كوننا مكلّفين به ثبوته في شرعنا على سبيل الإخبار مع عدم ورود ما يقتضي تكليفنا به وشمولنا بذلك التكليف فتكون مشمولين بالخطاب الموجّه إليهم؟ والحقّ أنّ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨) كافية لغلق باب الجدل في هذه المسألة إضافة لاختلاف خصائص الشرائع، وضرورة ملاحظة «الخصوصيّة والعالميّة» في هذا المجال!! وقد أحسن إمام الحرمين حين قال في البرهان الفقرات (٤١٧–٤٢٣): "إنّ هذه المسألة لا يظهرلها ثمرة في الأصول ولا في الفروع، بل هي مما يجري مجرى التواريخ". وراجع الكاشف عن المحصول: (٣/١٨٤) والنفائس (٢/ ٢٥٥ب) وهامش المحصول: (٣/ ٢٦٥).ط الرسالة.

قال تعالى فى سورة الأنعام: "**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {الأنعام/٩١} وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ {الأنعام/٩٢} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {الأنعام/٩٣} وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ {الأنعام/٩٤}**".

هذا النجم متَّصل بعمود هذه السورة الأساس، ألا وهو تقديم الوحى الذى أنزله الله على عبده ورسوله – مُحَمَّد ﷺ – للبشريَّة كافَّة ليخرجها من الظلمات إلى النور، ومجادلة المشركين عنه وإفحامهم، كما جادل الله أهل الكتاب عنه وأفحمهم فى سور سابقة. ويأتى ذكر الكتاب المنزل على خاتم النبيِّين – صلى الله عليه وآله وسلَّم – بعد ذكر عدد كبير من النبيِّين الذين آتاهم الله الكتاب والحُكم والنبوَّة، فإن يكفر بها مشركو مكَّة ومن حولهم فقد وكَّل الله بها قومًا ليسوا بها بكافرين، فإذا كفر أهل مكَّة بما أنزلنا فهم الخاسرون.

ومما يلتفت النظر إليه أنّ الامام الرازي قد قال ما لفظه: "إنّ من أخبره (أي: النبيّ) بوجود الرجم في التوراة لم يكن ممن يقع العلم بخبره، فثبت أنّ رجوعه إليها كان ليقرّ عليهم أنّ ذلك الحكم (أي الرجم) ثابت في شرعهم، وأنهم أنكروه كذباً وعنادًا..."، أمّا ثبوته في شرعنا فلم يثبت بالقرآن، ولا بسنن تصلح أن تزيد على القرآن؛ لأنّها ليست في قوة ثبوته، والزيادة على النصّ نسخ والإمام الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنّة، وبالتالي فإنّه –وفقًا لقواعده– لا يقول بجواز إضافة «الرجم» إلى الحد، لأنّه زيادة على النص القرآني على الجلد في الآية الثانية من سورة النور.

ويبيّن السياق أنَّ جميع الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكروا فى الآيات السابقة ممن اجتباهم الله وهداهم إلى صراطٍ مستقيم، وأنَّ ما جاؤوا به أقوامهم هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وأنَّهم جميعًا موحّدون لم يشب إيمان أيٍّ منهم أو دعوته شرك وأنَّ الشرك ظلمٌ عظيم وذنبٌ خطير يعرّض صاحبه – إذا لم يتب — إلى الخلود فى النَّار، فيقول الله – جلَّ شأنه – لرسوله صلى الله عليه وآله وسلَّم: "أولئك الأنبياء المذكورون فى الآيات السابقة الذين هدى الله "فبهداهم اقتده" فاقتدِ بهم وسر على طريقتهم فأنت واحد منهم ما كنت بدعًا من الرسل وكان المفروض بأولئك الذين يزعمون أنهم مؤمنون بأيٍّ من أولئك أن يسارعوا إلى الإيمان بك، وإدراك أنَّك خاتَم النبيّين وحامل الرسالة الخاتمة إلى الناس كافَّة" لكنَّ هؤلاء المشركين لم يقدُروا الله حق قدره ولم يعرفوه حق معرفته فلم يدركوا عظمته ولم يعرفوا صفاته وأسماءه، ولم يستطيعوا أن يحيطوا علمًا بتمام قدرته وبكونه على كل شيءٍ قدير؛ ولذلك لم يدركوا أنَّ الله – تبارك وتعالى – لا يمكن أن يترك عباده سدى؛ لأنَّه لم يخلقهم عبثًا بل خلقهم – جلَّ شأنه – ورزقهم ليستخلفهم ويعطيهم فرصة الوفاء بما عاهدوا الله عليه وفرصة آداء الأمانة فلم يكن من الممكن أن يتركهم لعداوة الشيطان يصدّهم عن السبيل ويبعدهم عن الحق ويسيَّرهم كما يشاء ويقعدنَّ لهم صراط الله المستقيم ويضلهم ويمنّيهم ويعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. ومن هنا فقد كان الوحى والنبوَّة وإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الكتاب والحكمة عليهم، كان ذلك كله لحكم بالغة ولتمكين هذا الإنسان من التغلُّب على الشيطان وعلى مشاريعه فى الإضلال، فالوحى والنبوَّة ضروريَّان لا يمكن للإنسان أن يواجه مشارع الشيطان ويتغلب على عداواته لولا لطف الله به وإرسال الرسل والنبيّين وإنزال الكتب عليهم والوحى إليهم. فهذا أمر لا يمكن لعاقل أن يستغربه أو يرفض الإيمان به أو التصديق به. وهذا كلُّه لإظهار ضلال المشركين وانحرافاتهم وسفه آرائهم. ومن هنا يظهر الله لرسوله مدى ضلال هؤلاء المشركين وفساد آرائهم وانحراف تفكيرهم حين استبعدوا أن يوحي الله إليك وأنت بشر مثلهم وأن يصطفيك عليهم وأنت واحد منهم فهم عاجزون عن أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوا مدى قدرته ليعلموا أنَّك رسوله وصفيُّه وخليله والكتاب المبارك المنزل على قلبك كلماته ووحيه وأنَّه – جلَّ شأنه – له الحكمة البالغة فيصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس: ".. **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {الحج/٧٥}**"، ومن "... **ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**

{الجن/٢٧} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا {الجن/٢٨}"، وهذا العذر الذى يتعلَّل به أولئك البَطَلة من مشركى مكَّة هو ذات العذر الذى تعلَّل به المشركون والكافرون من قبل فامتنعوا عن الإيمان بالرسل، وذكر الله حالهم بقوله جلَّ شأنه **"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً {الإسراء/٩٤}"**، وكأنَّهم يزعمون الإشارة إلى أنَّه لو بعث غير البشر كالملائكة لقبلوا دعوتهم واستجابوا لها كما قالوا قولتهم التى ذكرها الله فى بداية السورة **"وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)"**، **وقال جلَّ شأنه "قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً {الإسراء/٩٥} قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {الإسراء/٩٦}"**، ويبيّن ذلك جهلهم ونفى الحكمة التى يدعونها عنهم فهم لم يصابوا بالجهل بربهم – سبحانه وتعالى – وعجزهم عن تقديره حقَّ قدره ومعرفة صفاته – تبارك وتعالى – فقط بل هم جاهلون بمعنى الرسالة والرسول والملائكة والنبيّين وهم يوهمون أنفسهم بأنَّهم يعلمون ويفهمون ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولو عرفوا الله حق المعرفة وأدركوا معنى ربوبيَّته لهم وعبوديَّتهم له لما سقطوا فى تلك الضلالات. إنَّهم على صلة بالكتابيّين وقد سمعوا منهم وعرفوا أنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد أنزل الكتاب على موسى بقطع النظر عما أحدثه بنو إسرائيل من عدم الاهتداء بالكتاب وحمله بطريقة الحمير[٢١]، ولكن ذلك شائع ومعروف لديهم وكثيرًا ما كان يلجئون المشركون إلى أولئك الكتابيّين يستشيرونهم فى بعض الأمور لأنَّهم أهل كتابٍ سابق، فَلِمَ يستبعدون أن ينزل الله عليك كتابًا مباركًا مصدق الذى بين يديه وهم الذين كانوا يزعمون أنَّه لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى من الذين سبقوهم من اليهود والنصارى، كما جاء فى الآيات (١٥٤ : ١٥٨) من هذه السورة – سورة الأنعام التى معنا – قال تعالى: **"ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {الأنعام/١٥٤} وَهَذَا**

---

(٢١) إشارة إلى قوله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {الجمعة/٥}".

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {الأنعام/١٥٥} أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ {الأنعام/١٥٦} أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ {الأنعام/١٥٧} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ {الأنعام/١٥٨}"، فها هى أمنيتهم قد تحققت وأنزلنا عليك هذا الكتاب المبارك الذى جعلناه مصدّقا للذى بين يديه ومهيمنًا عليه **"وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {المائدة/٤٨}"**.

ولقد صدّق القرآن لما بين يديه من الكتب. وقد كان التصديق بإعادة تلك الكتب وما ورد فيها إلى حالة الصدق التى نزلت بها ثم الهيمنة عليها لحفظها فى المستقبل من أى تحريف. فهو كتاب مبارك جاء بالرسالة العامة الشاملة الخاتمة التى تنطلق من أم القرى حيث الحرم وتتجه إلى ما حولها لتستقطب الشعوب الأمية الغافلة التى لم يأتها من قبلك من نذير ثم بعد ذلك تنطلق إلى العالم كله لتصحيح الدين وإزالة ما علق به نتيجة تصرفات البشر وتحريفاتهم وانحراف تأويلاتهم وتفسيراتهم، فيؤمن به جميع أولئك الذين يؤمنون بالآخرة ويحافظون على صلواتهم وخشوعهم وإخبات قلوبهم، هؤلاء هم الذين سيهتدون بأنوار هذا الكتاب.

وتبين الآية التالية مدى ظلم وانحراف من يفترون على الله الكذب، فيزعمون أنَّه أوحى إليهم ولم يوحَ إليهم شئ أو أولئك الذين يتجاوز كبرهم وغرورهم كل الحدود ليقول بعضهم: سأنزل مثل ما أنزل الله، هؤلاء إذا ما جاءهم الموت تخرج نفوسهم كارهة جزعة، وزيادة فى السُّخرية منهم تبسط الملائكة أيديها لتسلّم تلك النفوس الأمارة الخبيثة ويقال لهم: **"أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا**

كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {الأنعام/٩٣}" زيادةً فى حسراتهم وسخريةً بهم؛ ليُجزَوا عذاب الهون والهوان الشديد والذل الذى ما بعده ذل بما كانوا يقولون على الله من أباطيل وينسبون إليه من افتراءاتهم وأكاذيبهم ما شاؤوا استكبارًا وغرورًا وإلحادًا ومكر السيِّئ، ولا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله. سيقدم هؤلاء المفترون على الله فرادى كما خلقهم أول مرة تاركين وراء ظهورهم كل ما خولهم الله من نعم لم يعرفوا قدرها ولم يقوموا بواجب شكرها ولم يكن معهم أولئك الذين كانوا يزعمون أنَّهم سيكونون شفعائهم يوم القيامة، فكانوا يعظمونهم ويذبحون بأسماءهم الذبائح ويقدِّمون لهم النذور ليشفعوا لهم عند الله وليقرِّبوهم إليه. هم أولئك الذين قال الله – جلَّ شأنه – فيهم: **"وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {يونس/١٨}"**، إنهم أولئك الشركاء المزعومون الذين قال الله فيهم: **"وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ {الأنعام/١٣٦}"**، وقال: **"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ {الزمر/٣}"**، فهؤلاء الذين زعمتم أنَّهم شركاؤكم وشركاؤنا فيكم وفى خلقكم ورزقكم لقد تقطع كل ما كان بينكم وبينهم من تلك الروابط المزعومة الكاذبة، يقول جلَّ شأنه: **"وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ {البقرة/١٦٥} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ {البقرة/١٦٦} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ {البقرة/١٦٧}"**، فكل تلك الروابط والأسباب المزعومة سوف تتقطع وآن ذاك لن تنفعهم الحسرات ولن تغنى عنهم البراءآت وإنكار بعضهم لبعض، أو إرجاع بعضهم لبعض القول، ولن تخفف من عذاب أيٍّ منهم شيئًا. إنَّ الوحى قد علَّمكم الكثير ممَّا تجهلون وممَّا لم تكونوا تعلمون أنتم ولا آباؤكم؛ لكنَّ الإيمان بالوحى شئٌ

عظيم لا يستطيعه إلا الذين سبقت لهم من الله الحسنى وهدوا إلى الإيمان بالآخرة وهم على صلاتهم يحافظون.

ثم بيَّنت الآيات أصنافًا من أولئك الذين بلغوا فى الظلم غايته فى مواقفهم من الوحى: فمنهم من يفترون على الله الكذب، فقد يدَّعى بعضهم أنَّه أوحى إليه ولم يوح الله – تعالى – إليه شيئًا. ومنهم من يقول بطيشٍ وغرور: "**سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ.. {الأنعام/٩٣}**". ومنهم من يستكبرون عن آيات الله بغير الحق، يقول جلَّ شأنه: "**وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً.. {الأعراف/١٤٦}**".

إنَّ بيان حقيقة الوحى وصدق الرسل، وردّ سائر شبهات الجاحدين يبيّن للناس صدق مصدر الرسالة وحجيَّتها وصحة نسبتها إليه سبحانه، فتزيل كل ريب يتوجه إلى مصدرها، ويقطع دابر كل شبهة بحيث لا يحتاج الوحى – بعد ذلك – إلى الانشغال بالدفاع عن كل أمر جاء به وبيان صدقه وحجَّيته.

النجم التاسع: في تفصيل معاني الألوهيّة والربوبيّة والاستدلال عليها بدليل الخلق ودليل العناية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ *بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ

شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٩٥-١٠٥).

تبدأ هذه الآيات الكريمة بعرض قضيّة «الألوهيّة والربوبيّة»، وتعريف البشر بإلههم وربهم -جلّ شأنه- بتقرير طريقة أخرى من الطرق التي يعرض القرآن المجيد بها دليلي الخلق والعناية، وهي تتّسم بأنّها تستقطب قوى الوعي الإنسانيّ -كلّها- وتشدّها للتردّد الدائم بين محورين: **الأول**: محور الطبيعة والكون المسخّر، **والثاني**: محور الإنسان نفسه. ويضع القرآن قوى الوعي هذه في حركة دائبة بين المحورين؛ ليوصّل الإنسان المخيّر بتلك الحركات الدائمة -بين الكون المسخّر والإنسان المخيّر- إلى معرفة الله المدبّر لما هو مسيّر ولما هو مخيّر، فالله -تبارك وتعالى- خلق الموت والحياة، وقدّم ذكر الموت على ذكر الحياة؛ لأنّه الأصل للحياة والمنطلق الذي تنطلق منه الحياة، وكلاهما -الموت والحياة- يتداولان الإنسان والطبيعة، وبداية ونهاية كل منهما مما يشهده الإنسان ويلامسه، فلا مجال لإنكاره أو تجاهله. فالحَبّ من الحنطة والشعير والذرة وسواها تبدأ حياتها بـ«فلق الحبة» وفتحها؛ لتتحول إلى نبتة قد تُنبت سبع سنابل، وقد يكون في كل سنبلة مائة حبة، مِثْل تلك الحبة الأصل، التي كانت حبّة واحدة ففلقها الله ونمّاها لتصبح سبعة سنابل تحمل سبعمائة حبّة. كل منها يمكن أن تدخل دورة حياتيّة، لتقدّم لكم نوعًا واحدًا من أنواع الطعام الذي تقوم حياتكم عليه. إنّ الذي فلق هذه الحبّة هو الله ربكم وإلهكم وخالقكم وبارئ نسمكم؛ و في الأيمان يُقسم الحالفون بقولهم: "لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة". والنوى مثل «نواة التمر»، فهذه النخلة الباسقة أصلها نواة فلقها الله لتصبح بعد حين نخلة، تحمل عددًا كبيرًا من حبّات التمر الذي تأكلونه مستمتعين بحلاوته وما فيه من غذاء لكم. وحين تلاحظون دورات الموت والحياة تشاهدون كيف يخرج الله الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحي، وكيف يجري تداول الموت والحياة! وفيما تكون قوى الوعي مشدودة -كلّها- إلى تلك العمليّات الهائلة في دورات الموت والحياة، حيث

ينفلق الحب والنوى، ويخرج الحيّ من الميّت والميّت من الحيّ بتلك الحركات الدائبة التي لا تتوقف، بحيث يصبح عدم اكتشاف الإنسان «آيات الله» في ذلك كله _عندما ينظر في صنع الله الذي أتقن كل شيء فلا يرى يد الله فيه_ أمرًا في غاية الغرابة، ويبدو لكلٍّ ذلك الموقف الغريب من أهل الشرك والكفر، موقف الانصراف عن الله إلى المجهول، إلى غياهب الجهل والشرك وظلمات الإنكار، وقبل أن يسترد الإنسان أنفاسه اللّاهثه يلفت القرآن المجيد نظره بشدّة نحو الكون الفسيح والظواهر الطبيعيّة وسنن الكون، وكأنّه يقول له بغلظة تلائم الموقف: "ألم تعرف ربك بعد؟!"، دعك من الحب والنّوى، وغذائك اليوميّ الذي تتوقف حياتك عليه، أنت تحيا حياتك وتعيش ليلك ونهارك، هل لاحظت كيف يفلق الإصباحُ ظلامَ الليل الدامس؟ وهل راقبت كيف تخرج من سبات الليل إلى معاش النهار؟ وهل رأيت الشمس والقمر، وكيف تجري الشمس لمستقرٍّ لها؟ وكيف قدّر القمر منازل، وأنت تتابع حركة كل منهما لتعلم عدد السنين والحساب؟ هل ساءلت نفسك: مَنْ الذي خلقهما؟ ومَنْ الذي قدّر لكل منهما مسيرة ودورة؟ لتدرك أنَّ الله ربّك وربّ آبائك الأولّين هو من خلق كلا منهما، وهو الذي جعل الشمس نورًا والقمر ضياءً، وجعل الليل والنهار خلفة، وجعل في السماء بروجًا، وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا... هل وصلت إليه؟ وهل عرفته؟.

ويواصل القرآن المجيد تفصيل الآيات، فيشدّ قوى وعي الإنسان إلى نجوم معيّنة يعرفها العرب القاطنون في المدن والقرى والأرياف والبوادي، فما من إنسان يسافر إلى أيّة وجهة أو اتجّاه إلاّ وتشتد حاجته إلى معرفة تلك النجوم ليهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وإلاّ فسيهلك بالتيه والضياع، هذه النجوم، مَنْ خلقها؟ ومن جعلها مصابيح للسماء ورجومًا للشياطين؟ ومَنْ ألهمكم ضرورة الاهتداء في ظلمات البرّ والبحر بها؟ إنّه الله خالق كلّ شيء. وبعد تفصيل كل ما يتعلّق بالكون نبدأ بتفصيل ما يتعلّق بهذا الإنسان الجامد المتصلّب، المعطّل لقوى وعيه: هل لك أيّها الإنسان المغرور أن تتفكر في

نفسك أنت؟ فأنت لم تكن شيئًا مذكورًا قبل سنوات، وها قد صرت شيئًا مذكورًا تجادل فينا أنبياءنا ورسلنا، وتتمرّد على أوامرنا، وتطيع فينا عدوّك وعدوّنا الشيطان! لو تساءلت نفسك: كيف وجدت ومَنْ الذي أوجدك، وتفكّرت قليلاً في ذلك، لوجدت أنّ الذي أنشأك من عدم هو الله ربّك وإلهك، لا ربَّ لك غيره، ولا إله لك سواه، خلقك من نفس واحدة، ومنّ عليك بالأرض، وجعلها مهادًا لك وجعل فيها سبلاً، وجعلها مستقرًّا ومستودعًا إلى الأجل المسمّى، فهي مستقر لكم ومستودع لكل ماتحتاجونه، إذ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه:٥٥)، وقدّرنا فيها أقواتها لتتمكنوا من الحياة فوقها، ولو تدبّرت أيّها الإنسان الغافل المغرور دورة حياتك عليها لاستطعت معرفتنا والاهتداء إلينا.

ثم انظر أيها الإنسان المغرور في ظاهرة أخرى. هذا الماء الذي ننزّله عليكم من أعلى، من السماء، وجعلنا منه كل شيء حيّ، ونخرج لكم من مستودع الأرض به نبات كل شيء، نخرج منه نباتًا أخضر، نخرج منه حَبًّا متراكبًا بعضه فوق بعض. وقد فصّلنا لكم كيف نفلق الحب والنوى لنخرج منه النخيل «ذات الأكمام»، وما تُخرج من ثَمَرات من قران أكمامها، هذه النواة التي فلقناها وحفظنا لكم ثمارها بـ«الأكمام» صنعناها لأداء هذا الغرض، وجعلنا «الطلع النضيد» منضّدًا بعناية على تلك الشماريخ التي تحمله، واعتنينا لكم بذلك الطلع من البداية لتستمعوا به بعد ذلك رطبًا جنيًا، وجعلنا من ذلك الطلع قنوانًا دانيةً، أعوادًا محمّلة بثمار سهلة التناول، وجعلنا لكم جنّات من أعناب والزيتون والرمان متشابهًا، يشبه بعضه بعضًا، وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر في بداياته، وينعه إذا أينع ونضج لتستمتعوا به فاكهة ومنظرًا، في حدائق ذات بهجة، تدخل إلى نفوسكم السرور، وتشعركم بالاكتفاء والاطمئنان إلى المستقبل بعد الحاضر. في ذلكم الذي ذكرنا -كلّه- آيات لقوم يؤمنون بالله واليوم الآخر، تزيدهم هدى، ويقينًا، وطمأنينة بالإيمان.

فكيف واجه هؤلاء المشركون تلك الأدلة كلّها؟ فبدلاً من أن يسارعوا إلى الإيمان، ويبادروا إلى اليقين، إذا بهم يجعلون لله شركاء «الجن»، والجنّ يطلق على كل ما استتر عن العيون، فيشمل الجن والملائكة والشياطين؛ ولذلك قال جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ*قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤٠،٤١) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الصافات:١٥٨) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ*وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (الصافات:١٥١-١٥٣) متجاهلين كونهم بعض من خلق الله، واختلقوا له بنين كالمسيح: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١) وبنات كالملائكة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ*وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ*يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٧-٥٩)، ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء:٤٠) ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ*وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ*أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ*وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ*وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف:١٦-٢٠). أمّا في هذه السورة فقد جعلوا لله شركاء من الجن وخرقوا له بنين وبنات، كأنّهم بذلك يحاولون أن يسوّغوا لأنفسهم رفضَ التوحيدِ والشركَ بالله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، قوله: (بديع السماوات والأرض)، أي الذي خلقهما وكل ما فيهما على غير مثال سابق. فـ«الإبداع»: لغة، عبارة عن عدم النظير، وفي الاصطلاح: هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود، قيل: هو أعم من الخلق، بدليل: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ و: ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ولم يقل: «بديع الانسان». وقيل: «الإبداع»: إيجاد الأيس عن الليس والوجود عن كتم العدم والإيجاد، والاختراع: إفاضة الصور على المواد القابلة، ومنه جعل الموجود الذهني خارجًا. وقال بعضهم: «الإبداع»: إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان؛ كالعقول، فيُقابل التكوين لكونه مسبوقًا بالمادة، والإحداث لكونه مسبوقًا بالزمان. و«الإبداع» يُناسب الحكمة، و«الاختراع» يُناسب القدرة، و«الإنشاء»: إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل، وأكثر ما يُقال ذلك في الحيوان، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم﴾ (الأنعام:٩٨)، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون:١٤).

وقوله: "أنّى يكون له ولد" أي كيف يكون له ولد ولو كنتم على شيء من منطق أو عقل لأثبتم له –أولاً– وجود الصاحبة التي تحمل بالولد وتضعه؛ أمّا القفز إلى نسبة الولد دون أن تكلّفوا أنفسكم إثبات وجود الصاحبة ففيه تجاهل تام لمنطقكم المفلوج وأوهامكم. إنّه –سبحانه– الغنيّ، خلق كل شيء، لو كانت به حاجة إلى ولد لاصطفى مما يخلق ما يشاء، ولكنّه منزّه عن ذلك سبحانه. لقد بلغ غباء هؤلاء وجهلهم وضلالهم آخر مَداه حين قلبوا الأمور، فبدلاً من أن يجعلوا التفرّد بالألوهيّة والربوبيّة دليلاً على عدم وجود الولد والشريك _لأنّ «الوحدانيّة» تُحتّم عدم وجود شيء من ذلك_ جعلوا من الوحدانيّة دليلا على الشرك، فتعالى الله عمّا يصفون.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هذا الخلق –كل ما ذكر وما لم يذكر– هو خلق ربكم المستحق لعبادتكم وتعظيمكم، فهو اللطيف بكم ومربيكم،

وهو مَن أحاطتكم نعمه ظاهرة وباطنة، أبصاركم لا تدركه؛ لأنَّها لم تُعَدّ لذلك في هذه الحياة الدنيا، أمّا هو –جلّ شأنه– فإنّه يُدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، الذي يعاملكم بالرفق والرحمة ويتلطف بكم؛ ولذلك فإنَّه –من تمام رفقه بكم ورحمته– أنزل على رسوله كتابه ليكون بصائر لقلوبكم، كما كان الخلق الذي ذكرناه لكم موضع مشاهدتكم واستمتاع أبصاركم به؛ من فلق الحبة والنوى، إلى فلق الإصباح، إلى إخراج الأحياء من الأموات، إلى خلق الشمس والقمر والنجوم، إلى خلقكم أنتم من نفس واحدة، إلى إنزال الماء من السماء لإحياء الأراضي الموات وإخراج نبات كل شيء من مستودع الأرض...إلخ، نعمه التي لا آخر لها، ولا طاقة بكم لعدّها أو إحصائها، فللبصائر القلبيّة جولاتها في فقه وتفسير المبصرات التي تشاهدها أبصاركم وتدركها أعينكم، ﴿فمَنْ أبصر منكم بعد ذلك فلنفسه، ومَنْ عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ﴾؛ أي: لست المسؤول عن منعكم –إكراهاً– عن الوقوع فيما أنتم فيه من ضلال، (إنْ عليّ إلاّ البلاغ)، ولن أستطيع أن أبعد وساوس الشيطان عنكم بالقوة، بل ذلك ما ينبغي أن تقوموا به بأنفسكم، ولو آمنتم واتصفتم بالتقوى وتحصنتم بها لأبصرتم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ*وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١،٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، يقول الشيخ الشعراويّ في معنى: « كذلك نصرف ». أي أن يأتي لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع، ويرقق قلوبهم، ويأتي بنماذج من الرسل، ومواقف أممهم منهم حتى نصادف في كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة فعندما يكرر الأحداث وينزل فيها التشريع والمواعظ فقد ترق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية.

ومعنى: (وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ)؟ إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد، لكن إن وجد في الذات الإنسانية نفس لوّامة فهي مَنَاعة للنفس ووقاية لها. فإن فعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع، وإن

اختفت النفس اللوّامة وصارت النفس أمّارة بالسوء، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ. وهنا تتدخل السماء وتأتي ببيان جديد ومعجزة جديدة. إن الفساد لا يتأبى إلا من وجود طبقات تطحن في طبقات، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشوق، لكن الطاحن المستفيد من الفساد هو الذي يعارض المنهج؛ ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرسل هم من الطاحنين للناس، لكنَّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم.

إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين؛ لأن السماء لم تتدخل إلى حين صار الإجرام لا مقاوم له. وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً من المجرمين، وهذا العدو يفتن به الناس، ويميل له ضعاف العقائد. والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون؛ ولذلك تجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور؛ فمثلاً تأتي حادثة الإسراء فمن كان إيمانه مهتزّا ينكر الإسراء، وذلك من أجل أن يذهب الزبد ويبقى من يحمل الدعوة بمنهج الحق. أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه. ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ (التوبة: ٤٧). إذن فالحق سبحانه وتعالى قد صرّف الآيات لينصر المطحونين، وحينما قال الرسول ﷺ ذلك قالوا درست وادّعوا أنه كان قاعداً في الجبل، وتعلم من أعجمي. ولذلك نجد الحق يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)[٢٢]

النجم العاشر: في بيان كذب دعاوى المشركين، وتوجيه التعامل معهم:

قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ * وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ

[٢٢] الشعراوي ص: ٢٦٧٧

اللهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ *وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ * أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:١٠٦-١١٧).

هنا يصدر الأمر العلوي للنبي الكريم -ﷺ- _وقد صرف الله الآيات، فافترق الناس في مواجهتها فريقين_ أن يتبع ما أوحي إليه، وأن يعرض عن المشركين، فلا يحفل بهم ولا يحفل بما يقولون من قول متهافت، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم. فإنما سبيله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك. ولا عليه من المشركين؛ فإنما هو يتبع وحي الله، الذي لا إله إلا هو، فماذا عليه من العبيد؟! (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ).

ثم يقوله -جل شأنه-: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٠٨). السبُّ: هو

الشتم، وذكر الإنسان بما يُسيئه، وقد نهى القرآن -في هذه الآية الكريمة- المؤمنين عن الهبوط عن المستوى الأخلاقى العالى -الذي وضعهم فيه- واحترام الآخر بسب المشركين والذين يدعون من دون الله، فإنّ ذلك سوف يدفعهم إلى سبّ الله ورسوله والمؤمنين، وليسوا سواء، فإنّ ذلك سوف يؤدي إلى سباب غير متكافئ؛ فأين الله -تبارك وتعالى- من آلهتم التي يزعمون ومن أصنام وأوثان وأموات وما إلى ذلك.

ويعلمنا الله -تبارك وتعالى- أدبًا عاليًا في هذه الآية الكريمة يصلح أن يكون أساسًا للتسامح وقبول الآخر وحسن التعامل معه، بل واحترامه. فهذا الشرك الذي نستنكره ونرفضه بكل أشكاله، ونسأل الله أن يُجيرنا منه، تضعه الآية تحت إطار التزيين: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام:١٠٨)، فكأن الآية الكريمة -وهي تعمل على تطهير وتزكية الإنسان المسلم ومنعه من السقوط في مهاوي السباب- تقول له -ليخفف من غلوائه في رفض الذين يدعون من دون الله- أنّهم أوهموا من الشيطان بأنّهم على حق وأنّهم على صواب، فالشيطان زيّن لهم؛ ولأنّ الله -تبارك وتعالى- لم يحفظهم، ولم يحل بين الشياطين وبين التزيين لهم، فإنّه -جلّ شأنه- نسب ذلك التزيين لنفسه ليقدم مزيدًا من الإشارات إلى المؤمنين بأن يبتعدوا عن سبّهم، أو يعتبرونهم قد وقعوا في الكفر عن تصميم وقصد واختيار مجرد من عند أنفسهم، وإذا كان -جلّ شأنه- قد نسب التزيين للشيطان في آيات أخرى فتلك هي الحقيقة: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل:٢٤) ولكنّه فى هذه الآية الكريمة، وهو في معرض حمل المسلمين على تجنب السباب وتحويل أمر الدعوة إلى خصومة شخصيّة مباشرة، نسب التزيين إليه جلّ شأنه، على ذلك المعنى الذي نبهنا إليه، فكأنّه يريد أنّه إذا كان الله قد هداكم للإيمان فأصبحتم بنعمته مؤمنين مسلمين فإنّ الخذلان قد أصاب آخرين، فلا ينبغي أن تسبّوهم على ذلك. ولأنّ سبّهم وسبّ شركائهم وأصنامهم سوف يثير حميتهم، ويحملهم الشيطان على سبّ الله

جلّ شأنه، وذلك سيزيد في ضلالهم وانحرافهم وإمعانهم في الشرك والضلال، فعليكم ألا تُعينوا الشيطان عليهم، وتدفعوهم إلى ذلك. والآية تقدّم لنا درسًا بليغًا في التعامل مع الآخر، وفي العدل معه فى القول والعمل، وأن نبتعد عن الهبوط إلى مستوى الخصومة الإنسانيّة المباشرة، فاختلافنا معهم اختلاف في دين ومعتقد، فإذا بغضنا شيئًا فإنّما نبغض أعمالهم وشركهم، ولا نقبل شيئًا من ذلك، أمّا هم، وبوصفهم بشرًا، فإنّ كفرهم وإشراكهم لا يجعلنا نستبيح تحقيرهم أو استعلائنا عليهم ومقتنا لهم بصفتهم البشرية، أو الإنسانيّة المجردة، فبُغْض عمل الإنسان شيء وبُغْض ذاته شيء آخر، ولا بد من التفريق بين الاثنين، فأنت تدعوه للهداية وتدعو له بها لأنّك تحبه، وتريد الخير له، وتريد أن تخرجه من الظلمات إلى النور.

والسباب لا يأخذ شكلاً واحدًا؛ فإنّ خطباء بعض المساجد الذين يضمنون أدعيتهم نحو «أحصهم عددًا وأهلكهم بددًا واجعلهم وأموالهم ونسائهم غنيمة للمسلمين» يقومون بعملية سباب في إطار دعاء في غير وقته وفي غير مناسبته، فإذا دعا رسول الله وأصحابه اللهَ -جلّ شأنه- بمثل ذلك وهم يخوضون المعركة، أو يتهيأون لها، فذلك أمر مفهوم، أمّا أن يدعو خطيب بمثل هذه الأدعية، وفي هذه الأوقات، فإنّه يدفعهم إلى كراهية المسلمين واستباحة دمائهم وأعراضهم، وإذا احتج عليهم أى محتج فيقولون: "إنّ هؤلاء لو تمكّنوا منا فذلك ما سيفعلونه فينا، اسمعوا إلى خطبائهم فى الجمعة ماذا يقولون، وانظروا ماذا يكتبون، إنّهم يقولون كذا وكذا..." من هذا السباب، والمسلمون اليوم -وقد بلغوا للأسف الشديد هذه المرحلة من مراحل الضعف- في حاجة إلى أن يُعيدوا النظر في كثير من هذه الأمور، وألا يكونوا كمثل الذي قال: "أشبعتهم شتمًا، وراحوا بالإبل"! إذ ما الذي أفاد هذا الأحمق صاحب الإبل من الشتم والسباب الذي قاله لمن استاقوا إبله واغتصبوا أمواله؟!.

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (النمل:٤)، فالتزيين من الشيطان لا من الله تعالى؛ لأنّ الله ﷻ لا يأمر بالفحشاء ولا يزيّنها لأحد، لكنّه بعد أن علم

منهم اختيار سبيل الشيطان خلّى بينهما، وأسقط عنهم حمايته لهم من الشياطين وحفظه لهم من وساوسها، وذلك ما يسوغ نسبة التزيين له سبحانه، فللّه -تعالى- سنن ثابتة لا تتغيّر في ضلال من يتعرض للضلال ويختاره سبيلاً له، وهداية من يتشوف إلى الهداية ويطلبها ويتطلّع إليها: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ من هذه السورة، و: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا*قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا*قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا*وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا*إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء:٦١-٦٥)، و:﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا*كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا*أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم:٨١-٨٣) و: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحج:٥٣)، والآية: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصّلت:٢٥) والآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف:٥).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهؤلاء يعمون عندما يُحرجون، ولا يبقى بين أيديهم سبيل للشغب لطلب آيات ومعجزات جديدة، ويقسمون الأيمان على أنّهم سوف يؤمنون إذا جاءتهم آية جديدة كما طلبوا، ويكشف الله -تعالى- نواياهم، ويبيّن عدم جدّيتهم، وأنّهم يريدون إيمانًا وإسلامًا ودينًا مفصّلا على

أهوائهم، وتتّسع لكل رغباتهم وشهواتهم، فلا تغتروا أيّها المؤمنون بمزاعم هؤلاء، ولا تسألوا رسلكم كما سُئل موسى من قبل توهمًا منكم أنّهم صادقون بوعدهم بالإيمان لو جاءتهم آية: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ*كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ*لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ*وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ*لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر:١١-١٥)، مع هذه الآيات من هذه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ*وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ*وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١٠٩-١١١).

(وكذلك جعلنا لكل...) إنّ نزعة معاداة الأنبياء التي يشتركون فيها هم وشياطين الجن هي التي تحملهم على تلك المقترحات والطلبات التي ليس بينها وبين الصدق والجد نسب، بل هي مزخرفات كلاميّة يتبادل شياطين الإنس والجن الإيحاء إلى بعضهم بعضًا بها، غرورًا منهم واستهزاءً بالنبيّين، ولو شاء الله منع هؤلاء الأعداء من فعل ذلك كرهًا لمنعهم الله، فلا يقف شيء في وجه قدرة الله -تعالى- فذرهم وما يفترون، وذرهم في طغيانهم يعمهون ويتردّدون في عذابات الضلال والحيرة في الحياة الدنيا وعذاب النار في الآخرة. إنَّ تلك العداوة والإيحاء بزخرف القول غرورًا تميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضونه، فليرتكبوا من الإثم ويقترفوا من الجرائم ما هم مقترفون.

يذهب شياطين الجن إلى أوليائهم من شياطين الإنس ليجادلوا في ذلك وليقولوا: إنَّه لا فرق بين ماذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه في حقيقة الذبح واللحم؛ ليصدوا أوليائهم، وكلُّهم متمردون أشرار، سواءٌ أكانوا من الإنس أو الجن، يوحون في خفاء، ويوسوس بعضهم لبعض من زخارف الأقوال ما يجادلونكم فيه، وإن أطعتموهم في ما يدعونكم إليه ويجادلوكم فيه إنّكم لمشركون.

ولعلّ هذا فيه الوعيد للشعوب المسلمة التي تعتمد على الاستيراد من غير المسلمين في طعامها وشرابها، ولا تفرّق بين ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه، وتجادل عن ذلك، فإنَّ الآية الكريمة تجعل الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه دائرًا بين الفسق والشرك، وما الذي يجعل البلدان المسلمة – عربيّة أو غير عربيّة– تعتمد اليوم في أكلها –كلاً أو بعضًا– على ما يستورد من غيرهم؟! ويتناسون ويتجاهلون ما حرّم الله –جلّ شأنه– في هذا المجال، وقد فصل لنا ما حُرّم، ومنه ما لم يذكر اسم الله عليه. إنّ عدم تحرز المسلمين وتقصيرهم في تحقيق الأمن الغذائي فسق دينيّ، وخطر حقيقيّ على البلد والتدين أو الدين والأمَّة، إضافة إلى الصحة وتحقيق الأمن الغذائي والاعتماد على النفس في أمر لا يمكن الاعتماد فيه على الغير، فغير المسلمين لو أرادوا الضغظ على أي بلد مسلم وفرض شروطهم عليه فإنَّ ذلك ميسّر تمامًا لعدم توافر الأمن الغذائي في أي بلد مسلم، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ثم ينادي رسول الله فيهم: (..) أفغير الله أبتغي وأطلب حَكَمًا يحكم بيني وبينكم أيّها المدعوّون إلى الإيمان به من مشركين وكتابيّين، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً ليكون له الحكم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران:٢٣). وأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنَّ هذا الكتاب منزّل من ربك بالحق، فلا تكونَنّ من الشاكين بأنّهم لا يعلمون، أو أنّهم قد يجهلون ذلك، فتجهد نفسك في تعليمهم ودعوتهم.

وتمت كلمة ربك في هذا القرآن صدقًا وعدلا، لا مبدّل لكلماته، ولا ناسخ ولا مغيّر؛ لا على مستوى الألفاظ؛ لأنّ الله سميع ويسمع كل ما يحاولون إحداثه، ويحول بينهم وبين التمكّن منه، ولا على مستوى المعاني؛ لأنّه سبحانه عليم، ولن يمنح هؤلاء القدرة على تحقيق ذلك، فاستمسك بالذي أوحي إليك من كتاب ربك صدقًا –كلّه– وعدلا –كلّه– ولا تبديل لكلماته. ولا تغرنّك كثرة أهل الباطل

والدّعاة إلى الزيع، فإنّ أكثر أهل الأرض على ضلال؛ لأنّهم يتّبعون الظنون، لا الصدق والعدل الذين جئتهم به: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦)، يخمّنون تخمينًا لا يستند إلى دليل، ويفتقر إلى ما يسنده.

يقول مجاهد في معنى الظن: كل «ظن» في القرآن فهو يقين، وهذا يشكل بكثير من الآيات. وقال الزركشي: للفرق بينهما ضابطان في القرآن؛ **أحدهما**: أنّه حيث وُجد «الظنّ» محمودًا مُثابًا عليه فهو اليقين، وحيث وُجد مذمومًا متوعّدًا عليه بالعذاب فهو الشك، و**الثاني**: أنّ كلّ ظنّ يتصل به «أن» المخفّفة فهو شك، نحو: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ (الفتح:١٢)، وكل «ظنّ» يتصل به «أنّ» المشدّدة فهو يقين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٠)، والمعنى في ذلك أن المشدّدة لتأكيد، فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها فدخلت في الشك[٢٣]. والقرآن المجيد قد أغنانا عن هذا الخلط فألفاظ القرآن مفاهيم كبرى فلليقين ألفاظه ومفهومه، وللظنّ ألفاظه ومفاهيمه، فلا داعي يدعو لإيجاد هذا التداخل الذي ذكره والتعميم الذي حاولوه. ونحن مأمورون بتدبر القرآن والنظر في سياقاته وستغنينا عن الاحتياج لهذا التداخل الذي ذكروه. وقد قال –جل شأنه مفرّقًا بينهما: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية:٣٢)، وبالتالي فالسياق هو الذي يحدد المراد من الألفاظ، وينبّه إلى القصد الإلهيّ من وراء ذلك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١١٧)، ويكفيك أنّه يشهد لك بأنّك على الحق المبين، وأنّ ما أُنزل إليك من ربك هو الحق، وأنّك على هدى وعلى صراط مستقيم. فيؤكّد تعالى بعد كل ما ذكر أنّه أعلم بمَن ضلّ عن سبيله، واتبع هواه، وهو كذلك أعلم بمَن اهتدى بآياته وصدّق به.

٢٣الكفوي (٥٨٨).

النجم الحادي عشر في بيان أحكام الأطعمة والذبائح:

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١١٨-١٢١).

هذه الآيات من سورة الأنعام والآيات التي ستليها حتى الآية رقم: (١٥١) تقريبًا، يبرز فيها أسلوب القرآن الكريم في عرض الأمور الشرعيّة أو الفقهيّة، وهو أسلوب يتّسم بما يلي: أولاً ليس فيه ترابط موضوعيّ كالذي نجده في كتب الفقه، من تقسيمه إلى كتاب طهارة، وصلاة، وزكاة...إلخ، لكنّ فيه عرضًا لقضيّة الحلال والحرام مرتبطة بأمور، وهي:العقيدة والرؤية الكليّة، وعلاقتها وانعكاساتها على تفاصيل الحياة؛ وإبراز الآثار المرتبة على ذلك التشريع في الحياة الدنيا وقضيّة الجزاء في الآخرة؛ و«الحاكميّة الإلهيّة» المتجليّة في «حاكميّة القرآن المجيد» وانحصار سلطة التشريع فيه.

ويجري القرآن أحيانًا نوعًا من المقارنة بين تشريعاته والتشريعات التي يختلقها العباد، ويبيّن ضآلتها وضحالتها، وكثيرًا من ثغورها؛ ليتبيّن القارئ عظمة التشريعات القرآنيّة الكونيّة ودقتها، وتميّزها وتفوقها على ما عداها، ثم يجمع بين عدّة أمور قد لا تتضح الروابط بينها بشكل مباشر، فقد لا تتضح فيها وحدة الموضوع لكن يتضح بها ذلك الارتباط الوثيق بين الشريعة والعقيدة والحياة الطيّبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة.

بعد هذه الجولة الطويلة في دلائل الربوبيَّة والألوهيّة مع دلائل الخلق والإبداع والتسخير، وبيان حقيقة العبوديّة والنعم التي أنعم الله على عباده بها وأتاحها لهم، لا توجد نتيجة أنسب من أن يدعو

الخلق إلى الأكل مما ذُكر اسم الله عليه، فذكر اسم الله عليه عند الذبح هو المفتاح الذي يفتح مغاليق الرزق المستودع، ويُعطيكم إذن الخالق الرازق المالك بتناوله هنيئًا مريئًا. لقد فصّل الخالق -جلّ شأنه- المحرّم عليكم من الأطعمة والذبائح، فمَنْ تجنَّب تلك المحرّمات -التي فصّلها الله في سورة المائدة وغيرها- وذكر اسم الله على ما ذبح، فقد أُبيح له أن يأكل منها إلا ما حرّم. إنَّ ذكر الله -تعالى- بالبسملة والتكبير عند الذبح إعلان لربوبيّة الربّ وعبوديّة العبد، ليس ذلك فحسب، بل إنّه تذكير لمالك الأنعام وللجزّار وللآكل بأنّ الأطعمة يجب أن تكون طيبة حسيًّا ومعنويًّا؛ إذ إنّ اسم الله عظيم ويستدعي مبدأ «النعمة والشكر والحمد» والخالق الذي ذلل هذه الأنعام ورزقها الإنسان، ويصبح الأكل آنذاك عبادة وسبيلاً إليها، ولعل سيدنا رسول الله —صلى الله عليه وآله وسلّم- كان ينبّه إلى هذه المعاني وهو يقول: «وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا آجَرَكَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ»[٢٤]، فمشاعر الربوبيّة والعبوديّة هي التي تهيمن على أدقّ ما في الحياة من نُظُم، ومنها نظام الأطعمة، وحينما يذكر سائر ذوي العلاقة اللهَ في هذا الموقع، ويسمّون باسمه، ويكبّرونه -جلّ شأنه- فذلك يساعدهم على استحضار مفهوم التقوى، ومع استحضار مفهوم التقوى ينتفي الغش والجشع والرغبة في الكسب، ولو على حساب صحة الإنسان وحياته، فتختفي الظواهر السلبيّة التي -بعد أن طال علينا الأمد وقست منا القلوب- برزت، بل هيمنت على حياتنا جميعًا، وأدّت إلى ظهور سائر ما نعاني من مشكلات في نظام الحياة، والإضرار بصحة الإنسان.

وحينما يبدأ الآكل تناول طعامه بالبسملة فذلك توكيد أنّه يأكل من طعام صنعه وأعدّه ورزقه إيّاه رب العالمين، الخالق المالك، فهو -وحده- ربّه وإلهه وخالقه ورازقه، ومادام قد ذكر اسم الله عليه، ولم يكن ممّا أُدرج فيما فُصّل تحريمه، فكلوا منه، بل هناك حضّ منه -جلّ شأنه- على الأكل منه:

[٢٤] أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري (دار طوق النجاة) (٥/ ٦٨).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾، لا شيء يمنعكم من ذلك، وفي تفصيل ما حرّم عليكم في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣﴾ جرى استثناء ما اضطُررتم إليه أيضًا.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾، هناك كثيرٌ من الناس يضلون ويُضلون لاتباعهم أهواءهم بغير علم، فيضلون بغير علم ويُضلّون غيرهم وفقًا لتلك الأهواء، وفي ذلك يعتدون على أنفسهم وعلى غيرهم وعلى سلطان الله –جلّ شأنه– و يعلن –سبحانه– انحصار عملية التحليل والتحريم به جلّ شأنه، ثم يقول جلّ شأنه: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ(١٢٠)﴾؛ أي: اتركوه ودعوه، وظاهر الإثم هي المنكرات التي تفعلها الجوارح؛ من ضرب وسبّ وسرقة وزنا وما إليها. أمّا باطن الإثم فهو الذنوب التي تقع في القلب؛ كالحسد والنوايا السيّئة. وفي الآية التالية في ذكر المحرّمات قُسّمت الفواحش إلى ما ظهر منها وما بطن، والمراد هذا المعنى.. والله أعلم. فالذين يكسبون الإثم الظاهر أو الباطن سَيُجْزون بما كانوا يفترون ويرتكبون من تلك الجرائم، ثم ينهى –جلّ شأنه– عن أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه، ويعتبره فسقًا، والفسق: هو الخروج عن إطار الشرع، والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، وتُطلق على المؤمن إذا أخلّ بالالتزام بأحكام الشرع كلها أو ببعضها، وإذا أطلقت على الكافر فإنّما تُطلق عليه لأنّه خرج عن العقل والأحكام التي يُلزم العقل بها، وتقتضيها الفطرة. وقد كثر ورود هذا المفهوم في القرآن المجيد: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥٠)، ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾

(الإسراء:١٦)، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٤)، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ (السجدة:١٨)، ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:١٠٨)، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة:٦٧)، ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ (يونس:٣٣)، فالفاسق أعم من الكافر، يشمله ويشمل سواه، وتسمية القرآن الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه بأنّه فسق يعني أنّه خروجٌ عن الالتزام بطاعة الله تبارك وتعالى، وهذا النوع من الفسق كثيرا ما يقع بإيحاء الشياطين إلى أوليائهم.

النجم الثاني عشر: عودٌ إلى بيان قدرة الله المطلقة الداعية للتفكّر وإخلاص الوجه له:

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ *فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ *لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ *يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى

أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ *وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢-١٣٥)

ويعود السياق مرة أخرى إلى عمود السورة الأساس، ليقارن بتساؤل: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كان ميتًا في حالة الكفر، فالكافر الذي لا إيمان له ميتٌ في الحقيقة؛ لأنَّه قد مات عهده مع الله، وخرج من دائرة الاستخلاف، وفرّط بالأمانة الإلهيّة، وفشل في اختبار الابتلاء، فكأنَّه لم يُخلق ولم يوجد، ولا يزال في غيابات العدم ميتًا من الأموات، فأحييناه بالإيمان وجعلنا القرآن نورًا له يعيش في ضوء هدايته، ويسير بأنواره في الناس. هل يمكن أن يكون كمن مثله في ظلمات الجهل والشرك ليس بخارج منها ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فزين لهم شياطينهم وأولياؤهم أعمالهم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ ففي كل مدينة عظيمة وقرية كبيرة يغلب أن يكون الأكابر والمتحكمون والمتأمّرون فيها هم المتطرفون. ومن السنن الاجتماعيّة أنّ «الترف» قرين الفسق، فحين يترف الإنسان ويسبح بالنعم، وليس له من إيمانه وتقواه ما يحول بينه وبين ذلك، فإنَّه ينصرف نحو الفسق، وإنّ ذلك يجعله ممّن يحق عليه القول والوعيد الذي هدّده الله به، وهؤلاء الذين فسقوا وأترفوا، وصاروا أكابر المجرمين، لا يتوقع منهم توبة ولا استقامة: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:٣٣)، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء:١٧)، وهؤلاء الفسقة إذا جاءتهم آية من آيات الله قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله استكبارًا منهم وغرورًا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا

لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٢١)، استكبروا في أنفسهم واغتروا وأضلّهم الملأ، فتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان، وطلبوا أن يؤتوا مثل ما أوتي رسل الله، ويقول جلّ شأنه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ (المدثر:٥٢)، منشورة غير مطوية وغير مغلقة، كي يقرأها متى ما يشاء هذا الطغيان والغرور لهم، يرد -جلّ شأنه- عليهم بأنّ الرسل رسله، وهو مَنْ يختارهم ويصطفيهم، وهو أعلم أين يجعل رسالته، وأنّ هذا الاستكبار -الذي يمارسونه في هذه الحياة- يتحول إلى صغار وذلّ وهوان في الآخرة وعذاب شديد.

ثم يُبين -جلّ شأنه- أنّ مَنْ أراد الله له الهداية يشرح صدره للإسلام، ومَنْ يرد أن يُضلّه يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنّما يصّعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس، وتقدّم في سورة البقرة (٥٩) رجزًا، وكذلك في سورة الأعراف الآية (١٣٤)، لكنّه في هذه الآية وفي الآية (٩٠) من سورة المائدة جاءت بالسين «رجس»، وكلاهما يُستعملان في القرآن بالمستقذر حسًّا، كالميتة والخمر، أو معنى مثل الكفر والنفاق ووسوسة الشيطان والعذاب المترتب على الكفر والمعاصي، فكل ذلك يُطلق عليه رجسٌ أو رجز. والرجز قد يُطلق على ما ينفر الطبع منه أو العقل أو الشرع. فهو دائرٌ بين ذلك المستقذر طبعًا أو حسًّا أو شرعًا أو عقلاً، ويكون حسيًّا ومعنويًا. وقد يأتي بدلاً من كليهما نجسٌ، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة:٢٨)، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:٥)؛ أي: كل ما يندرج تحت رجز أو رجس يجب هجره بصفةٍ عامة، وهذا الرجز يصيب الذين لا يؤمنون.

ثم يقول جلّ شأنه: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: نوعنا في آيات القرآن لينتفع الناس في مستوياتهم كلها بحسب استعداداتهم إذا كان لديهم استعداد ليتذكروا وليتدبروا، وهؤلاء المؤمنون لهم دار السلام عنده، وهو وليهم بما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ (الأنعام:١٢٩)، لقد أعلمنا القرآن المجيد بأنّ الله –تبارك وتعالى– قد خلق خلقًا وأممًا سمّاها الجن، وخلق خلقًا سمّاه الملائكة، وخلق الدواب والأنعام والشجر وما إليه، وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالنا، والجن –كما جاء في كتاب الله– خلق مثل الإنسان من حيث وجود قوى وعي لديه؛ من سمع وبصر وقوة عاقلة وما إلى ذلك؛ ولذلك خوطبوا بالقرآن المجيد، ونودوا لاتباع النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم، فكان منهم من استجابوا لله وللرسول وقبلوا الخطاب، ومنهم من تمرّد وكفر ولم يقبل الخطاب: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (الجن:١١) وقال المؤمنون منهم الذين استجابوا لله وللرسول: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف:٣١)، وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا*يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن٢،١) فادعاء مَنْ ادعى أنّهم مكروبات أو بكتيريا يصادم ما جاء عنهم في كتاب الله، ومَنْ ذهب إلى ذلك الرأي، لا بد له من توبة ورجوع إلى ما جاء القرآن به دون زيادة أو نقص، وما أضافه الرواة والمفسرون والقصاصون والوعّاظ في تراثنا من حكايات عن الجن، وزواج الإنس بالجن، وإمكانيات ذلك زائد على ما في القرآن الكريم، وما ارتبط به، و ماجاء تأويلاً له من سنّة نبويّة،كله تزيّد لا ينبغي للمؤمن أن ينظر فيه إلا وعينه على القرآن المجيد. فما كان في القرآن دلالة عليه فإنّه يقبل، وما لم يكن فلابد من الحذر الشديد منه. ولقد كانت الثقافة الشفويّة السائدة في جزيرة العرب، والمتأثرة بمرويات أهل الكتاب وما أشاعوه في الحجاز وغيرها، أثر كبير في تساهل الناس في رواية القصص عن الجن وعلاقتهم بالإنس وتداولها إلى أيامنا هذه. ولو أنّ الناس التزموا بما ورد في كتاب الله –تبارك وتعالى– ووقفوا عنده دون تزيد لما شاعت تلك الأفكار الخطيرة وبلغت ما بلغته حتى أفسدت على المؤمنين إيمانهم، وأفسدت عليهم تصوراتهم لعالم الغيب، وخرّبت ما بناه القرآن في قلوبهم من تحرّر من الخوف من الطبيعة والمخلوقات الغيبيّة وما إلى ذلك، بحيث صار الناس يتحدثون عن زواج الإنس بالجن والعكس، ودرء حدّ الزنا عن مَنْ ادعت أنّ مَنْ أحبلها إنّما

كان جنّيًّا، باعتبار ذلك شبهة يُدْرء الحد بها. وبلغ الناس في هذا الأمر ما بلغوه، حتى كادوا يفقدون – مع سلامة الإيمان وصحته– عقولهم كذلك.

لقد أراد القرآن المجيد أن يُبيّن لنا أنّ هناك مخلوقات أخرى غيرنا؛ منها ما يتمتع بقوى وعي، وقد خوطب بالقرآن الكريم كما خوطبنا، وكُلّف كما كُلّفنا، لكن ذلك لا يعني إلغاء الفوارق وهدم الفواصل بيننا وبين تلك العوالم، فالله قد جعل الملائكة بحكمته مسخّرين لطاعته، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون، لا يعصون الله –تعالى– ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وجعل الإنس خلفاء في الأرض، ومنها خلقهم وإليها يعيدهم ومنها يخرجهم تارة أخرى، وجعل فيهم استعدادات للخير واستعدادات للشر، وجعلهم من عالم الشهادة؛ لأنّ مهمتهم تتعلق بهذا العالم، وتنحصر فيه، وخلق الجن، وأوجد فيهم استعدادات مماثلة، وإن كان أصلهم من نار، ليُبيّن قدرته جلّ شأنه، وخاطبهم بهذا القرآن الكريم، وأرسل لهم رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– ولن يخرجهم كونهم تلقوا رسالة –هى رسالة مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ، الرسالة الخاتمة– من كونهم جزءًا من عالم الغيب، لا يتصل بنا ولا نتصل بهم، ولا يؤثر فينا ولا نؤثر فيه، وعلاقاتهم بالإنس لا تتجاوز علاقة الوسوسة بطريق الإيحاء والترغيب والتزيين الخفي، وليس لأي منهم سلطان يجعله قادرًا على التأثير في الإنسي فيما عدا ذلك، فلا يتجاوز الأمر مستوى الوسوسة وحالتها. وكل ما دخلنا من مداخل الثقافة الشفويّة هو إرث إسرائيلى، نجم عن انفتاح النسق الإسرائيلي على ذلك الغيب لحكمة أرادها الله –جلّ شأنه– فأعطى سليمان ذلك السلطان الذي ذكره القرآن، كما أعطى موسى تسع آيات بيّنات، وألان لداوود الحديد، وجعل الجبال تؤوّب معه والطير، فتلك أمور لم تخرج أيضًا الجنّ من كونهم جزءًا من العالم الغيبي، وذلك الاتصال المحدود الذي جرى بينهم وبين سليمان هو اتصال جرى بحكمة الله جلّ شأنه، ورسالة مُحَمَّد –صلى الله عليه وآله وسلّم– أعادت الأمور إلى نصابها، فهى رسالة تجاوزت موضوع خرق السنن والقوانين الإلهية التي وضعها للكون والطبيعة وللانسان

والجان والملائكة والشياطين، وكل دابة هو آخذ بناصيتها، ولسائر الأمم التي خلقها، ذلك الأمر كله قد انتهى وتوقف، فسليمان حين دعا أن تُسَخّر له الريح والشياطين والجن قال: ﴿مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ (ص:٣٥) وقد استجاب الله لدعوته، فلا ينبغي أن نتجاوز تلك الحدود إلا إذا نصّ القرآن على شيء من ذلك، كما أنّنا لا نحتاج إلى تأويل الجن بكونها البكتريا أو المكروبات كما فعل الشيخ مُحَمَّد عبده وتابعه الشيخ رشيد رضا، وهفوات الكبار على أقدارهم، فالجن خلق لا نعلم عنه إلا ما وصفه القرآن به، ولا ينبغي أن نتزيّد فيه، لا بثقافة أهل الكتاب ولا بثقافة الجاهليّة، ولا بثقافة من تأثروا بالتراث الجاهلي وآدابه وما ورد فيها من شعر ونثر ووصف للجن والشياطين وما إلى ذلك[٢٥]. ونحن نقول إنّ القرآن حجّة على كل انسان، وليس هناك إنسان يُعتبر قوله حجّة على القرآن المجيد، فإذا قصر القرآن علاقتهم بناء على هذين الأمرين؛ يروننا من حيث لا نراهم: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧)، وأنّ بعضهم يُوحي إلى مَنْ يماثله في المعصية والانحراف من الإنس زخرف القول: ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢)، وأنّ ذلك الإيحاء يتم بطرق خفيّه وليس بطريق مباشر لاختراق النفس الانسانيّة، فذلك يعني أنّ عملهم وتأثيرهم لا يتجاوز الوسوسة لجعل الإنسان يستقبح أشياء وينفر منها، أو يستحسنها ويُقبل عليها، لأنّ الوسوسة لا تتجاوز عمليّات التزيين والتحسين والتقبيح الوجداني، وهذه هي التي دلّ القرآن عليها: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (النمل:٢٥) وهذه كلها لا دلالة فيها على فكرة

[٢٥] وعفى الله عن ابن تيمية –يرحمه الله– حينما تأثر ببعض المرويات التي وردت بما لا يتفق مع القرآن الكريم وقبلت لدى بعض أهل العلم لإطلاقهم القول في حجيّة خبر الواحد، دون تفصيل بين ما يصدق القرآن عليه ويهيمن وبين ما لا يصدق القرآن عليه من تلك الأخبار، فادعى أو نسب إليه أن جنّيًا قد سخر له وأنّه كان يتمثل به، وأحيانًا ينوب عنه في وعظ السلطان وأمره ونهيه، في حين يكون ابن تيمية في السجن لم يغادر؛ ولذلك تأثّر كثيرون بما ورد لدى ابن تيميه في هذا الأمر، حتى أنّ الشيخ عبد العزيز بن باز – يغفر الله– لنا وله تقبّل فكرة تلبس الجن بالإنس، ونسب إليه أنّه كان يعالج بعض المرضى النفسيّين والعقليّين بالرُقية الشرعيّة لإخراج الجن من إنْسِيّ تلبّس به أو دخل بناء على ذلك.

اختراق الجنّ والشياطين للإنسان وسكونهم في جسده، واستمتاعهم ببنات آدم أو أبنائه، ذكرانًا من الجنّ أو إناثًا، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢)، فالغواية مدخل من مداخل الوسوسة والتزيين؛ لأنّها استعداد لذلك؛ ولذلك فقد جاء القرآن المجيد بذكر ذلك المشهد المعجز البليغ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم:٢٢)، فسلطانه قد انحصر في دعوته بطريق الوسوسة الخفي والإيحاء الخفي كذلك، وتكون الاستجابة إذا كان الانسان من الغواة أو مَنْ في إيمانهم شرك: ﴿إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النمل:٢٢)، وقد ذكر الله -تبارك وتعالى- لنا ما فعل الشيطان بمشركي قريش: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ*وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨،٤٧)، فهو بالرغم من معصيته لله، وعدم سجوده لآدم، ونفيه من الجنة، وإعلان تخليده فى النار، قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، فى حين يتجاوز المشركون والعصاة العتاة هذا المستوى، مع أنّه لا يُيأس من رحمة الله، فذلك الشيطان الذي مقته الله وجعل مصيره الخلود فى النار؛ لا ينكر أنّه يخاف الله، وقد ينتهي من الوسوسة ثم يفارق مَنْ وسوس لهم ولا يفي بأي وعد وعدهم إياه، ومع ذلك، ومع كل هذه الآيات البيّنات، إلا أنّ المسلمين قد هجروا القرآن الكريم وانصرفوا لغيره، وأخذوا بمرويات وآثار لا يصدق القرآن عليها، دون نظر إلى هيمنته وضرورة إخضاع كل شيء لوجهته؛ ولذلك وجدنا هذه القضيّة موضع استغلال شديد منذ تراجعنا، فمرّة نُسْتَدْرَج لتأويلات لا يتقبلها كتاب الله، ومرة ننفي أمورً قد تؤدي إلى الكفر ونفي ما جاء القرآن به؛ كما فعل كثير من الملحدين ومَنْ تأثروا بهم، ومنا مَنْ يؤمن بتأثير للجن يتجاوز أقدار الله -جلّ شأنه-

ويخترق سننه وقوانينه مثل الادعاء بجواز أن يتزوج الجني من الإنسيّة وجواز أن تحمل منه، ويقبل كثير من الفقهاء ذلك. وبعضهم صار يدّعي أنّ الجن قد أمره بالسرقة، وبالرشوة، وقد بلغ من تجاوز الناس لكتاب الله واهتمامهم بمرويات لا تخلو من شذوذ وعلل قادحة، وفي أسانيدها ومتونها مشكلات كثيرة، فضلاً عن أنها لم تفهم على وجهها، أو لم تنكشف لهم عللها في أسانيدها ومتونها، أن صار أولئك العرّافون والكهنة الجدد من الذين ينسبون أنفسهم إلى فئة الرّقاة، الذين يستعملون ما سُمي بالرقية إلى المحاكم، ليستنطقهم قضاة اتخذوا كتاب الله وراءهم ظهريًّا وهجروه، ولم يأبهوا بتصديقه ولا هيمنته.

إنّنا نعتقد أنّ الذين يُشيعون هذه الأمور ويعززونها، ويجعلون منها حقائق واقعيّة، إنّما هم مخرّبون ومدمرون وسفهاء، تجاوزوا القرآن وتجاوزا سنن المصطفى –صلى الله عليه وآله وسلّم– باتّباعه والتمسك به، وانصرفوا وراء الخرافة بوحي من شياطين الإنس من أعداء هذه الأمة الذين يعملون ليل نهار لنهب ثرواتها وتمزيق كيانها وتدمير مقوماتها، وجعلها أمَّة من المجانين والمخرّفين والمشعوذين والدجالين؛ ليسهل الاستبداد بشؤونها، حتى تصبح دولة بني إسرائيل لا من النيل إلى الفرات فقط، ولكن من المحيط الأطلسى حتى الخليج الفارسى. فإنّ أمّة يبلغ بقضاتها ومحاكمها الأمر هذا المستوى لا يمكن أن تكون لها فاعلية، ولا يمكن أن تهتم بشرعيّة أو شريعة أو قيم أو دين، إنّها أمَّة من السوائم، تُسيّرها مجموعة من الشياطين ومن الجن ومن الشهوات والرغبات، ومن عناصر الفساد والإفساد، أعاذنا الله الكريم من ذلك.

إنّ الله –سبحانه وتعالى– حين يقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ (الأنعام:١٢٨)، أي: استكثرتم من الوسوسة لهم وإضلالهم وإبعادهم عن سبيل الله، فجعلتم الفاسدين والمنحرفين والفاسقين أكثر من أهل الاستقامة، يريد –جلّ شأنه– أن يقيم على الفريقين –فريق شياطين الإنس وفريق شياطين الجن– الحجّة قبل إدخالهم النار، فهو حوار مثل الحوارات التى جاءت بين الذين استضعفوا والذين استكبروا: ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ*قَالَ الَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ*وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٣١-٣٣).

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ﴾ (الأنعام:١٢٨)، وهذا الاستمتاع ليس بالمعنى الذى ذهب إليه القائلون بدخول الجني إلى الإنسيّة وتمتعه بها، بل هذه محمولة على الوسوسة، وعلى ذلك التولي بين شياطين الإنس وشياطين الجن، الذي لا يتجاوز ما أشار القرآن إليه أبدًا. بل لقد تجرّأ البعض ليؤكد أنّه ما من إنسان إلا وفى داخله شيطان أو جنى أو ما إلى ذلك، ولم يستثنوا سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– من ذلك. وحينما رأوا ذلك كثيرًا قالوا –بعد أن ذكروا اعترافًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بأنّ له شيطانًا مثل غيره– رووا عنه أنّه قال: "إلا أنّه أسلم"؛ أي: أقل شرًّا من شياطينكم، وفى رواية (أسلم): دخل الإسلام، وحاشاه –صلى الله عليه وآله وسلّم– أن يحدث له ذلك أو أن يقول ذلك وهو يتمتّع بالعصمة الإلهيّة من الناس والجن والشياطين. فليتق اللهَ الخائضون فى هذه الأمور، والمروّجون لها، فإنّه إذا كانت قوى الشر في الأرض تريد لهذه الأمّة أن تفقد آخر حصونها، وتنغمس في الخرافة وظلماتها، فإنّ هناك دارًا آخرة يسأل الله –تعالى– فيها الناس عن إيمانهم وعن اهتدائهم وضلالهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدًا.

فهذا مشهد من مشاهد القيامة، حين يقف الخلق بين يدي الله، فيُقال للأشرار من الجنّ والكفرة المردة منهم: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾، أي من إغوائهم، وقال –جلّ شأنه– في سورة يس: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾، في جماعة كثيرة، وكأنّها لكثرتها تشبه الجبل في الثبات أو العظمة أو الضخامة، فيقول لهم؛ أي لشرار الجن: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾؛ أي من

إغوائهم وإضلالهم، فيقول أولياؤهم من الإنس كالمعتذرين: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، فالجن قد استمتعوا بقيادة الإنس وإغوائهم، وكأنّهم استمتعوا بنشرة الزعامة بالقدرة على الإغواء والإضلال، أمّا أولياؤهم من الإنس فقد استمتعوا بالشهوات التي قادوهم إليهما وزيّنوها لهم.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وها نحن في هذا اليوم –يوم القيامة– بين يديك، والله –تبارك وتعالى– لم يذكر لنا الحوارات والجدل الكثير الذي ذكره في أماكن أخرى، حيث يتبرأ كلٌ منهم من الآخر؛ لأنّ ذلك قد عُلم من آياتٍ كثيرة مرّت في سورة البقرة، وستأتي في سور أخرى، مثل سورة إبراهيم وغيرها. بل كأنّه عجّل بهم إلى النار: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ (الأنعام:١٢٨)؛ أي: جميعًا، أنتم وأولياؤكم، خالدين فيها إلى ما شاء الله، وما شاء الله هنا لا يعني أن يتوقف العذاب، نعوذ بالله، بل إنّ فيها معنى الاستهزاء بهم، وقد يقصد بها تلك الفترات التي ألف الناس أن يعتبروها توقفًا، فكأنها استثنيت، وهي التي وردت في نحو قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣).... ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ (الصافات)، فكأن هناك انتقال من النار إلى مكان أكثر فيها، فيه طعامٌ وشراب من هذا النوع؛ ولذلك قال في سورة الرحمن: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ*يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (الرحمن:٤٣،٤٤)، فذلك هو الاستثناء إلا ما شاء الله؛ أي اللحظات الاستثنائيّة لألوان الطعام والشراب، الذي هو نوع آخر من العذاب. ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فهم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به. نقول: لا، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك من سيئات أو حسنات[٢٦].

[٢٦] (تفسير الشعراوي ص: ٢٧٤٢)

النجم الثالث عشر في بيان ضلالات المشركين وتجرئهم على تحكيم أنفسهم من دون الله في بيان الحلال والحرام:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٦-١٤٠)

تحدثت الآية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ عن منح المشركين أنفسهم مسؤوليّة الحكم في الحلال والحرام في الحرث والأنعام وغيرها، وتجاهلوا أنّ أمر الحكم بالتحليل والتحريم والمنع والإباحة كله وفي كل شيء منوط بالله سبحانه وتعالى. إن الحكم إلا لله، فلا يجب على العبد شيء إلا بإيجاب الله، ولا يحرم عليه شيء إلا ما حرّم الله. وقد فصّل الله -تبارك وتعالى- ذلك كله، وما

كان ربّك نسيًّا. لكنّ رعونة المشركين جعلتهم يتجرّؤون التحكيم فيها بهذه الطريقة الجائرة؛ ولذلك سخر القرآن منهم، وبيّن فساد حكمهم وانعدام منطقيّته، وافتقاده التام إلى الحكمة ومعرفة المقصد والهدف والغاية والآثار وما إلى ذلك.

ثمّ عقّب عليه بأنّه حكم سيّء، فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ففي هذه الآية تحدّث -جلّ شأنه- عن سفه الشرك وسذاجة العقليّة الشركيّة وأوهامها الكثيرة التي جعلتها تضع أصنامها وشركاءها في مقابلة الله -تبارك وتعالى- الذي خلق كل شيء واستخلف البشريّة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: خلق، ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، وكأنّهم مالكون حقيقيّون يملكون حقّ التوزيع والتقسيم، زعموا أنّه لله مع أنّ زرعهم وأنعامهم وكل ما في السماوات والأرض خَلقُ الله وملكه، وهم لا يتجاوزون كونهم مستخلفين فيه. وفي آية «سورة الزمر» يذكر الله إنزال الأنعام في إطار بيان خلق الإنسان واستخلافه. فيقول جلّ شأنه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر:٦) فجاءت بلفظ (وأنزل لكم من الأنعام) وذلك للربط بين هبوط الإنسان إلى الأرض من الجنّة وهبوط عدوّه الشيطان معه، ويذكّره بأنّه أنزل له من الأنعام ثمانية أزواج أيضًا. وفي «سورة يس» يمتنّ -جلّ شأنه- على بني آدم بخلق الأنعام وتذليلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١) وجعل خلقها -جلّ شأنه- منوطًا بيده الكريمة لبيان مزيد من العناية التي يحتاجها الإنسان ليدرك مكانة هذه النعمة، فإذا بهذا المستخلَف يتجاوز كل صلاحيّاته وحدوده، ليخصّص للمالك الحقيقيّ -الذي استخلفه- نصيبًا يستردّه لصالح الشركاء الذين اختلقهم، وجعل نصيب الشركاء المزعومين -المخصّص لهم بذلك التحكم السيّء الذي لا عدل فيه و لا إنصاف- يذهب إليهم، ويذهب معه ما زعموا أنّه نصيب الله.

ثمّ ينتقل السياق إلى آثار أولئك الشركاء أو الأرباب التي صنعوها واتخذوها أربابًا من دون الله؛ ليُبيّن ما يجلبه هؤلاء الأرباب المتفرقون على مؤلّهيهم من انحرافات وبلايا ومصائب؛ منها تحريضهم على قتل أبنائهم، لينبّه إلى فساد تلك العقليّة، وفساد كل ما يصدر عنها من أحكام باطلة فاسدة، تجعل مجرّد إسناد «الحاكميّة» لها كارثة ضدّ الإنسانيّة، بل تدميرًا واغتيالاً لها. فتلك العقليّة هي التي مكنّت أولئك الشركاء المزعومين من أن يزيّنوا لكثير من المشركين قتل أولادهم؛ ليهلكوهم بتلك الجريمة وليلبسوا عليهم دينهم، بل يجعلونه خليطًا عجيبًا لا يقود إلى خير، ولا يهدي إلى استقامة، ولا يبني حياة. ولأنّ مشيئة الله -تبارك وتعالى- فوق كل شيء، والقربان البشريّ من أخطر ما ابتليت به البشريّة، بل هي أعظم جريمة وسوس شياطين الجنّ بها إلى الكهنة، وشياطين الإنسان أمثالهم؛ ليُشيعوا في البشريّة هذه الجريمة النكراء، وتتلخص بالتضحية بإنسان لصنم أو وثن أو ملك أو فداء لعظيم. وقد تفنّنت الشعوب في هذا النوع من القرابين البشريّة، فقرّبت لآلهة الخصب والنماء، وقرّبت لمن زعمته إلهًا، وأحيانًا تُقرّب للأنهار؛ كما كان الفراعنة يقربون للنيل لئلا يغضب فيفيض ويدّمر أو تنقص مياهه. وهناك النذور، وذلك بأن ينذر الإنسان إذا رُزق بشيء ما يريده أن يذبح ولده قربانًا لكذا. وبقيت قضيّة عروس النيل وتقديمها قربانًا له في موسم محدد إلى أن أنعم الله على مصر بالإسلام، فكتب عمر بن الخطاب ﷺ رسالته المشهورة إليه، وأمر بإيقاف تلك العادة الشركيّة. واستمر العرب في جاهليتهم يقربون أبناءهم لآلهتهم، ويئدون بناتهم حتى جاء الإسلام. ومن القصص المشهورة قصة عبد المطلب جدّ النبي مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ، الذي كان قد نذر إذا رزقه الله بعشرة أبناء ذكور أن يضحي بالعاشر ويذبحه قربانًا للآلهة، وذلك كان عبد الله والد النبي ﷺ؛ ولذلك فإنّ أصحاب السير يطلقون على الرسول الله ﷺ أحيانًا اسم «ابن الذبيحين»؛ أي اسماعيل وعبد الله.

وقد كان سيدنا إبراهيم قد اختاره الله -تبارك وتعالى- للقضاء على هذه العادة الشركيّة، حين أراه في المنام أنّه يذبح ولده إسماعيل، وجاءت قصته في «سورة الصافات» وغيرها: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ*رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ*فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ*فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات:٩٩-١٠٢) فهي مثل قضيّة سيدنا مُحَمَّد ﷺ في القضاء على جاهليّة التبني بأن جعله الله -تبارك وتعالى- بنفسه وسيلة لإنهاء هذه الحالة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب:٣٧). فما جاء في قضيّة سيدنا إسماعيل كان رؤيا منام، وليس هناك أي حكم شرعي أمر اللهُ نبيًّا أو رسولا بفعله أو تطبيقه أو دعوة الناس إليه بمجرد رؤية المنام، فالأحكام الشرعيّة التي ينقلها رسول الله وأنبياؤه -عليهم السلام- إلى البشر لا بد أن تُوحي إليهم بيقظة، وتُبْلَغ للمكلَّفين بيقظة كذلك، فلو قام أي إنسان ببيع أو شراء أو طلاق أو نكاح أو سوى ذلك في المنام لا يمكن أن يُثبَت بذلك حكمٌ أو يُبنَى على المنام صحة تصرّف، ولكنّه -سبحانه وتعالى- أراد أن يُبَيّن سفه المشركين وكهنتهم وأصنامهم بهذه الطريقة. وذكر لنا قصة إبراهيم وإسماعيل ليتصوّر الناس بشاعة قتل الولد بتلك الأسباب، ولعلّهم ينتهون ويتوقفون عن تلك الجريمة، فإنّ الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يأمر ولا يُزين لعباده ما يأمر أو يُزين أهل الشرك والكفر من قتل الأولاد، وانتقاده -جلّ شأنه- لهؤلاء المشركين يجعل ذلك الاحتمال منفيًّا تمامًا، ويجعل المراد لفت أنظار البشريّة كلها إلى بشاعة تلك الجريمة التي تنسب إلى الأديان وتربط بالآلهة والأوثان؛ ولذلك فإنّ الاعتقاد بأنّ الله -سبحانه وتعالى- قد أمر إبراهيم بقتل ولده ثم تراجع عن ذلك عطفًا على الذبيح -كما تشير التوراة وبعض نسخ العهد الجديد وبعض الشروح- تدل على أنّ هؤلاء لا يرون عصمة الأنبياء ولا حفظ الله لهم من ارتكاب الكبائر أو

الإصرار على الصغائر. وتلك قضيّة أخرى لابد لنا من إصلاحها والوقوف عندها عندما يأتي ما يناسب ذلك إن شاء الله. وأمّا تشبيهها لذلك بقضيّة التبني والقضاء عليه واستئصاله التي كلف به رسول الله ﷺ فإنّه أمر ظاهر أنّ من سنن الله –جلّ شأنه– أن يجعل أنبياءه ورسله قدوة يقتدي الناس بهم، ويتأسون بهم، فإذا كانت هناك انحرافات متأصّلة وثّنتها المجتمعات وتشبّثت بها، وتحوّلت إلى جزء من ثقافتها، فإنّه أمر ظاهر أنّ من سنن الله –جلّ شأنه– أنّ من أنبيائه ورسوله من يجعله طرفًا في قضيّة تؤدي إلى تعليم البشريّة مدى سوء ذلك الفعل وبشاعته، وضرورة الإقلاع عنه. وقد اختار الله سيدنا إبراهيم لهذه القضيّة –قضيّة قتل الأولاد واتخاذهم قرابين بشريّة– وكذلك اختار سيدنا محمدًا ﷺ لتخليص البشريّة من عادة التبنّي. والآية تنبّه بوضوح إلى هذا الذي استنبطناه، ووفقنا الله إليه في فهم منام سيدنا إبراهيم... والله أعلم.

هؤلاء الشركاء لا يملكون لأنفسهم ولا لمتّبعيهم ضرًّا ولا نفعًا، وأكد أنّه لو شاء منعهم من ذلك الفعل بالقوة لفعل؛ لأنّه صاحب المشيئة المطلقة المهيمنة، ومع ذلك فهم أناس قد يُستحسن أن يُهملوا لافتراءاتهم وأكاذيبهم، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وحين تنتهي الآية (١٣٧) من السورة يعود السياق مرة أخرى إلى أحكامهم السيّئة في الحرث والأنعام والزروع والبهائم، فذكر –تعالى– أنّهم عزلوا أنعامًا وحرثًا ومنعوها من الناس، وادّعوا أنّهم بذلك الحجر أو المنع يجعلونها متاحة فقط لمن يشاء الله –بحسب زعمهم– أن يصيب شيئًا منها فيأكلها أولئك المتصدّرون للكهانة والترويج للشركاء والدجالين، ويزعمون أنّ الله مكّنهم من ذلك، وأنّه لو لم يشأ أن يطعموا تلك الأنعام والحرث لمنعهم من ذلك.كما أخذوا نصيبًا آخر من تلك الأنعام، وزعموا أنّه حرام ركوبها، أنعامٌ أخرى زعموا أنّ عليهم ألا يذكروا اسم الله عليها عند ذبحها، وادّعوا أنّ تلك الأهواء

والأحكام السخيفة التحكميّة التي لا تبدو فيها أيّة حكمة هي أحكام ورثوها، وأنّ الله أمرهم بها افتراءً عليه –تعالى– متجاهلين الجزاء الذي ينتظرهم على افتراءاتهم تلك.

ثم يضرب لنا –سبحانه وتعالى– مثلا آخر في الآية رقم (١٣٩) عن هذا النوع من البشر المشركين، وكيف تضطرب أحكامهم نتيجة الشرك وابتعادهم عن التوحيد، ويتخذون من أهوائهم آلهة ورسلا يحكمون باسمها على الأشياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٣٩) فكأن هذه التقسيمات مجرد أوصاف مبتكرة لا قيمة حقيقيّة لها بحيث ترقى إلى مستوى الأحكام. وكما ربط السياق بين (١٣٦–١٣٧) وبين قضيّة الأحكام التي افتروها واختلقوها في الحرث والأنعام فقادتهم إلى استباحة قتل أولادهم بتزيين من شركائهم وشياطينهم الذين يريدون إهلاكهم وتدمير دينهم، وجعله خليطًا من رغباتهم وشهواتهم وتخريب دنياهم وما إلى ذلك. يقودنا السياق من الآية (١٣٩) التي تناولت مواقفهم مما في بطون تلك الأنعام، وأوصافهم السيّئة التحكميّة التي لا تبدو فيها حكمة ولا يظهر لها هدف ولا غاية، ليبيّن أن ما زيّنه للمشركين شركاؤهم فيما مرّ –من قتل أبنائهم– تحوّل إلى ممارسة حقيقيّة فقال في الآية: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٠)

النجم الرابع عشر في بيان نِعَم وأصناف الأنعام التي امتنّ الله تعالى بها على عباده:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾ (الأنعام: ١٤١-١٤٨).

ثم ينتقل السياق إلى بيان حقيقة الحرث ومنشئه وخالقه وجاعله أصنافًا وأنواعًا الذي صاحب الحق وحده في إعطائه الأحكام المناسبة والملائمة، والتي لم يجعل فيها برحمته أكثر من أن يأكلوا منها بإباحة منه جلّ شأنه، وأن يذكروا اسم الله عليها توكيدًا لعبوديّة الإنسان له والتزامه بشرعه، وأن يقوموا بأمرٍ هامٍ هو إيتاء حقه يوم حصاده لمن لا يستطيعون أن يكون لهم زرع ولا ضرع من الفقراء. ونهاهم عن

واحدة، وهي أن يسرفوا في استعماله؛ لأنّ كل شيء خلقناه بقدر، فالله قدّر في هذه الأرض أقواتها، وفعل –جلّ شأنه– مثل ذلك في الأنعام مبيّنا فوائدها.

إنّ القران المجيد قد بيّن لنا امتنان الله –تعالى– علينا وعلى العالم كله بما أنشأ من جنّات معروشات، وثمر وفواكه وطعام وشراب، وجعل تلك النعم التى لا تُحصى وسيلة لحضّ الناس على الإيمان بالله الذي أنعم عليهم بكل تلك النعم، ودعاهم إلى الاستمتاع بها واستثمار تلك الخيرات وإخلاص التوحيد له، ربًّا وإلهًا، لا يُشرك به غيره ولا يعبد سواه. وذلك يعني أنّنا مطالبون بالاستفادة بهذه النعم بإحياء الأرض بعد موتها، وتوفير المياه لها، وزراعتها، واستخراج ما مَنّ الله علينا به من خيراتها والاستمتاع بها.

والتخلف –حين يحول بين الإنسان وبين ذلك– يصبح ذنبًا من الذنوب، وظلمًا للأرض وما فيها ومَنْ عليها، وظلمًا للإنسان نفسه، فما خلق الله –سبحانه– هذه الأشياء إلا ليُستفاد بما فيها، فقد خلقها للإنسان، وذلّل له كل السبل التي تؤدي إلى الاستفادة بها، فإذا عطّلها ولم يستفد بها فقد حرم نفسه وحرم البشريّة من الوصول إلى نعم الله والاستمتاع والاستفادة بها؛ ولذلك كان العمل بالزراعة أو الصناعة أو سواهما عبادة من العبادات المقربة إلى الله –جلّ شأنه– إذا اقترن بالنيّة والإيمان والالتزام بالهدى، والعمل على إقامة الحقّ ونبذ الظلم، فإذا عطّل الإنسان ذلك، ولم يستفد به، فكأنّه رفض نعمة الله، فحرم نفسه وحرم غيره، وفي ذلك ظلم كبير للنفس وللغير.

إنّ سائر مقاصد القرآن –من توحيد وتزكية وعمران ومقاصد التشريع– لا يمكن تحقّقها إلا إذا أحيا الإنسان الأرض واستثمر كل ما أودعه الله فيها، ونفع نفسه وغيره بخيراتها، فذلك هو العمران المحقق لأهم أهداف وغايات ومقاصد الاستخلاف. وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك، وعملوا على إحياء

الأرض، وتركوا أحكامًا كثيرة وفقهًا غنيًا خصبًا فيما يتعلق بالأرض وأحكام إحيائها، وتداول الانتفاع بها، وما إلى ذلك.

ومن المؤسف أنّ المسلمين قد أساؤوا فهم فرائض الأمّة، أو فروض الكفايات، ومنها إحياء موات الأرض، واستثمارها في السكن أو الزراعة أو الصيد، وإعطاء الفقراء حقوقهم فيما تنتجه الأرض بجهود البشر القائمين عليها: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام:١٤١) وحين عطّل المسلمون هذه الفرائض وأساؤوا فهمها وتوقفوا عن الالتزام بها أصابهم الجوع والفقر والمرض، وفقدوا الأمن، وعادت أيديهم سفلى بعد أن كانت عليا، وأحاطت بهم المشكلات من كل جانب، وصارت الأمّة تعيش في زمن تستورد فيه ما تأكل من خصومها وأعدائها والجشعين من مكتنزي الأموال، ومحتكري السلع والمرابين، الذين صار لهم سبيل على هذه الأمّة، يستطيعون إجاعتها إن شاؤوا، وإيقاعها فى العري لو أرادوا، وحملها على معاناة العطش متى رغبوا. وأمّة مثل هذه يستحيل أن تتصف بالخيريّة أو الوسطيّة، فضلاً عن أن تقوم بمهام وأعباء الشهادة على الناس.

فالأمة اليوم تتسول من الأمم كل شيء، وما ذلك إلا لأنّها غفلت أو تغافلت عن فروض الأمّة، وعن تحقيق ذلك الذي صار يطلق عليه الأمن الغذائي، بل لقد اعتمدت على الآخرين –ومنهم خصومها وأعداؤها– في صناعة ما تغذي به الأرض وتخصبها من أسمدة، وصرنا نقرأ ونسمع ونعاني من أسمدة مسرطنة وأطعمة ملوثة، وأغذية مدمرة ناقلة للأمراض والمصائب، وأدوية فاسدة... وما إلى ذلك، وصدق الله في قوله جلّ شأنه: ﴿سنريهم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣)، وها نحن نرى مستشفياتنا تغصّ بالمرضى، ونرى أنفسنا فقراء في كل شيء، ومنه الماء الذي لم نحسن في سبل الاحتفاظ به أو إنمائه، أو تكثير موارده التي مَنّ الله علينا بها، وها نحن نجد الدراسات الكثيرة التي تهدد بأنّ الأربع سنوات القادمة سوف يشهد عالمنا فيها

فقرًا في المياه قد يؤدي إلى تعطيل تلك الزراعات البسيطة المتبقية لنا، والقضاء على ما بقي لنا ممّا ترك السابقون من نخيل وأشجار مثمرة.

والآيات الكريمة لو تدبرها المسلمون اليوم، وأدركوا معانيها، وعرفوا أنّ ما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدورًا للمكلف، فهو واجب، وقاموا بذلك حقّ القيام، لتجنبوا هذه المخاطر وتجاوزوا هذه التهديدات، واحتفظو بكرامتهم، وحرّروا أنفسهم من سيطرة الآخرين على طعامهم وشرابهم ولباسهم، فضلاً عن أسلحتهم وما إليها.

إنّ المسلمين –في تاريخهم كله– لم يعتمدوا على سواهم في هذه الضروريات، وكانوا يعتبرون أنّ الاعتماد على الآخرين في الطعام والشراب واللباس مُذِلّ للإنسان مهين لكرامته، مدمر لإرادته؛ ولذلك فقد كانت تسودهم أفكار وقيم الاستغناء عما في أيدي الآخرين، وتوفير ما يحتاجون بأيديهم وجهودهم. أمّا اليوم فإنّهم جياع عراة فقراء، يقفون من بقيّة العالم موقف التسول، ولا يأنفون وهم يستقبلون صدقات الشعوب وفضلات أموالها من قمح وأرز و ذرة وسواها، لجهلهم بفروض الأمّة ومقوّماتها وخصائصها، ومن لم يُحرر غذاءه وكساءه والماء الذي يشربه أو يتطهر ويغتسل أو يسقي به مزروعاته؛ فأنّى له أن يكون إنسانًا ذا عزّة وكرامة وقدرة على الكفاح والجهاد والنضال وتحرير الأرض، وصيانة العرض؛ ولذلك فإنّنا نتمنى على قادة الرأي والمسؤولين وصائغي الخطاب في الداخل الإسلامي أن يلتفتوا إلى هذه الفريضة الغائبة، ويسارعو إلى العمل على توعية الناس بها، قبل أن يطمس الله على الوجوه: ﴿من قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا﴾ (النساء:٤٧).

﴿ومِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ وإباحتها ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، والتحريم بالهوى والأوصاف المختلفة، والتحكم في تلك الأمور بما لم يأذن الله به، إنّما هو اتباع لخطوات الشيطان الذي حذّر الله منه ومن عداوته واتباعه منذ البداية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ثم يزيد في بيان سفههم وهو يشرّعون انطلاقًا من أهوائهم وشهواتهم، فيُورد قسمة عقليّة لتلك الأنعام، ويقول فيها: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٤٣)﴾ فالقسمة العقليّة هنا لا تقبل أكثر من هذا، وللزيادة في تفنيد آرائهم أو شهواتهم قال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، بنفس القسمة العقليّة بيّن سفههم وضلال حكمهم الذي لا يحمل أيّ منطق أو دليل يشهد لهم.

ثم يسألهم: ﴿أَ مْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤)﴾ ليبيّن كذبهم وافتراءاتهم وعاقبة ذلك عليهم في الدنيا والآخرة، وينبّه إلى أنّ عمليّة الحكم على الأشياء هي عمليّة في غاية الخطورة، لا ينبغي أن تمارس إلا بعلم، ومَنْ مارسها بغير علم فقد دخل في سلك الظالمين.

ثم بيّن لأولئك المشركين –ومَنْ سار سيرهم– مدى ضلالهم حينما منحوا أنفسهم حق التشريع وهمًا منهم وظنًّا كاذبًا من ظنونهم أنّهم بذلك سوف يوسعون على أنفسهم إذا منحوا أنفسهم صلاحية التشريع. وإذا بهم بدلاً من ذلك قد ضيّقوا عليها، وليبيّن الله لهم ضلالهم وانحرافهم واستقامة تشريعاته – جلّ شأنه– أمر رسول الله ﷺ بأن ينفي سائر الأحكام التي وضعوها –بزعمهم– افتراء على الله، ووصفوا بها بعض ما أنعم الله به عليهم وصفًا حرمهم من الاستفادة بها، فقال جلّ شأنه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥)﴾، فكلّه مباح إلا ما استثنى، وهو قليل جدًّا.

والتفت بعد هذه الآية إلى اليهود الذين شابهوا المشركين في بعض الجوانب، وحرّموا على أنفسهم بعض الأمور، وأباحوا لها بعضًا آخر بافتراءات نسبوها إلى أبيهم إسرائيل أو غيره من الأنبياء زورًا وبهتانًا، وردّ الله عليهم ذلك في: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:٩٣) أمّا بعد أن نزلت التوراة فقد ذكر –جلّ شأنه– ما حرّم عليهم، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦)﴾ ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء:١٦٠) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى*وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه:٨١،٨٢) ثم قال معقّبا على التحريم: "وإنَّا لصادِقون"، فهنا يبيّن لأمتنا نعمته البالغة السابغة في أنّ منطلق التشريع فيها هو منطلق التشريف والرحمة والتخفيف ورفع الحرج ودفع الإصر والأغلال، في حين أنّ منطلق التحريم في شريعة بني إسرائيل كان التأديب والجزاء المعجّل بناءً على اختلاف النسْقين الإسلاميّ واليهوديّ، واعتبر تحريم هذه الأمور جزاءً منه –جلّ شأنه– لهم ببغيهم وتجاوزهم حدود ما أنزل الله.

ثمّ جاءت الآية (١٤٧) لتقول: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فيما ذكرت لهم من شريعتهم التي يحرصون عى إخفائها ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فقل: ربكم ذو رحمة واسعة، ومع سعة رحمته فإنّه لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

النجم الخامس عشر في الدعوة إلى الإيمان بحجّة الله البالغة في منح الإنسان حرية الاختيار وائتمانه عليها، وأنه لا جبر:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ *قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨-١٥٣).

ثم ينتقل السياق بنا إلى نوع آخر من أنواع المجادلة التي أتقنها أولئك المشركون وحلفاؤهم من أهل الكتاب لتبرئة أنفسهم من الإجرام في حق الله -سبحانه وتعالى- حين ينازعونه الحاكميّة والتشريع، ويسجّل ما يدور في أوساطهم احتجاجًا لأنفسهم فيما يزعمون، وتبرئة لها، وإلقاء للمسؤوليّة في خروجهم على أحكام الله، ومنازعته -جلّ شأنه- سلطانه -تبارك وتعالى- فيقول: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨)﴾، فلا الشرك -الذي هو أساس المشاكل ومنبعها- ولا التصرف في الأحكام بحسب الرغبات والهوى يعترفون بفعله، بل ينسبون ذلك كله إلى الله -تعالى- ليخدعوا أنفسهم وجماهيرهم والبسطاء من الناس، ويوهموهم بأنّهم وهم يشرّعون

ما لم يأذن به الله لم يخرجوا عن مشيئته؛ إذ لو شاء لمنعهم بالجبر والإكراه من ذلك، وما دام لم يفعل ذلك فهذا يعني أنّه عنهم راض!! وهم يتلاعبون هنا في قضيّة «الأمانة»، أمانة الحريّة والاختيار الإنسانيّ، ويحتجّون بـ«الجبريّة» والجبر والقدر على ما يفعلون من جرائم، ويريدون أن يفحموا المصلحين ويقولوا لهم بأنّنا ما خرجنا عن دائرة المشيئة الإلهيّة في كل ما ارتكبناه من جرائم ومعاص، بل ما نزال بداخلها. ويرد الله –تبارك وتعالى– عليهم بالعلم لا بالوَهم، ويسائلهم: قل هل عندكم من علم بما تدّعون فتخرجوه لنا لنقتنع بما تدّعون وتقولون؟! ومن المعلوم أنّهم لا يملكون غير الأوهام، وإن هم إلا يخرصون. فيقول لهم جلّ شأنه: أما وقد عجزتم –ولا بد أن تعجزوا عن تقديم أيّ علمٍ أو أثارةٍ من علم– فقد ثبت أنّكم لا تتّبعون إلا ظنونكم السيئة وأوهامكم المريضة وتخرّصاتكم، أمّا الله –تبارك وتعالى– فله الحجة البالغة، وله البراهين الساطعة، والعلم الذي أحاط بكل شيء، فلو تعلّقت مشيئته بما تفعلون، وصادر حريّاتكم، لأصبحتم من المسخّرات التي تتحرك وتتصرف بقوانين مودعة فيها. وآنذاك فالمعقول والملائم للحكمة الإلهيّة أن يكرهكم ويسخركم لسبيل الهداية، فلو شاء؛ أي: إكراهكم على شيء، ومعاملتكم مثل المسخّرات بقوانين عامة صارمة جبريّة لا تقاوم لأكرهكم على الهداية؛ لأنّه –جلّ شأنه– لا يرضى لعباده الكفر، ولا يرضى لهم اتّباع الهوى والشيطان فيما يُحلّون ويُحرّمون. وبعد أن يُحبط هذه الحجّة يطالبهم بشيء أقل من ذلك، فيدعوهم لأن يأتوا بشهدائهم –إن كانوا يعرفون شهودًا– يشهدون لهم أنّ الله حرّم هذه الأشياء التي حرّموها على أنفسهم!! فإن افتروا كعادتهم، واختلقوا شهداء، أو شهد بعضهم لبعض كما هي عادة الكفار والمنافقين، فلا تشهد معهم؛ لأنّ موقفك مغاير، معك علم يقينيّ لا تزيله شهادات الزور ولا الشهادات المختلقة المفبركة: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وكأنّ الخطأ الأول الذي ارتكبوه وقادهم إلى تلك المهالك أنّهم جعلوا شركاءهم في مقابلة الله تعالى، وجعلوهم معادلين له جلّ شأنه، وهو لا يعدله شيء ولا يشبهه شيء من تلك المختلقات. كما أنّ عدم إيمانهم بالآخرة أعطاهم الجرأة على اتباع الهوى واختلاق الأحكام ونسبتها

إلى الله -تبارك وتعالى- ثم يأمر الله رسوله ﷺ قائلا: "قل"؛ أي لهم، "تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم"، وهو صاحب الحق في التشريع والتحريم والتحليل. بل إنّ هذه الصلاحيّة -صلاحيّة التشريع- منحصرة فيه -جلّ شأنه- فيذكر لهم أولاً: الشرك الذي يتمرّغون فيه: "ألا تشركوا به شيئًا". فالشرك هو أساس البلاء ومنطلق الانحرافات، ثم الإحسان إلى الوالدين والنهي عن الإضرار بأيٍّ منهما، وتحريم ذلك تحريمًا قاطعًا، ووضع هذه الجريمة، جريمة الإساءة إلى أيٍّ من الوالدين بعد جريمة الشرك مباشرةً؛ تنبيهًا من القرآن الكريم إلى هؤلاء بوجوب تذكّر كيف جاؤوا إلى هذه الحياة، ومَنْ الذي خلقهم وأنشأهم وربّاهم، وجعل منهم شيئًا مذكورًا بعد أن لم يكن أحد منهم شيئًا مذكورًا: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة:٨٣) ثم يردفها بجريمة ثالثة يحرّمها -مما كانوا يمارسون- وهي جريمة قتل الأولاد ووأدهم خوفًا من الجوع والإملاق لعدم إيمانهم بالله تعالى، فيقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١) فلستم المسؤولين عن أرزاقهم، كما أنّكم لم تكونوا مسؤولين عن خلقهم، وكل ما هو لكم في هذا الأمر أنّكم سبب طبيعيٌّ جعله الله لإيجاد هؤلاء الأولاد، والتناسب معجزٌ بين البدء بالنهي عن الشرك والأمر بالإحسان للوالدين، المشتمل على النهي عن الإساءة لأيٍّ منهما، والأمر بحماية الأولاد وعدم قتلهم أو التخلّص منهم خشية ضيق الرزق، ثم يأتي بقاعدة كليّة:﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ والفواحش جمع فاحشة، وهي السيّئة المجاوزة لحدود السيء، فكأنّها سيّئة تضاعفت حتى فحشت، إمّا بطريقة ارتكابها أو بالقصد والتصميم الذي اتصف به فاعلها، بحيث جعلها مجاوزة لحدود السيّئة، فتصبح بحيث لا يمكن الاعتذار عنها أو القول بأنّه ارتكبها مغلوبًا على أمره، أو بناءً على إكراه، وفيها إلماح إلى مراتب السيّئات والذنوب، فهناك ذنوب وسيئات قد يقع الإنسان فيها محاطًا بظروفٍ مخففة، يصعب معها أن يوصف فعله بأنّه قد فحش؛ أي جاوز الحدود كلها، أو أن يكون الذنب محاطًا بظروفٍ مشدّدة كما نسميه في لغة القانون اليوم؛ بأن يشتمل على القصد والتصميم وسبق الإصرار والترصّد، وما شاكل ذلك مما يعتبر -في قوانين الجرائم- من الظروف المشدّدة، فكأنّه -جلّ شأنه- باستعمال هذا اللفظ

المعجز أراد أن يُنبّه أنّ هناك ذنوبًا قد لا تبلغ حدّ الفحش؛ لأنّها لم تتجاوز حدودها العرفيّة، وتلك ذنوب قد يتوب الإنسان منها أو يرجع عنها أو يستغفر فيغفر الله له. لكن هناك ذنوبًا أخرى تتجاوز الحدود، فتتحول إلى فاحشة تستحق المقت الإلهيّ، وقد تؤدي بالفاعل لها إلى نوعٍ من الإدمان أو المداومة والاستمرار، كما أنّ جمعها لا يحصرها بجريمة الزنا، كما قد يتوب بعض العباد، فأيّ ذنبٍ يمكن أن يتحول إلى فاحشة –سواء أكان في المال أو السلوك أو سواهما– إذا جاوز به صاحبه الحدّ، واقترن بما يجعل منه فاحشة، وبما أنّ الذنوب منها ما يظهر للناس ومنها ما قد يكون في باطن الإنسان وقلبه؛ مثل قضايا العقيدة، فقد جمعها، ثم قسمها إلى نوعين: ما ظهر منها وما بطن.

وهذه الأفهام الخاطئة ليست جديدة على هؤلاء الذين يقرؤون القرآن عضين، ويفرّقون بين آياته بشتى أنواع الفوارق التي تمليها عليهم شياطينهم ورغباتهم، فإذا كان المشركون –فيما سبق– اعتذروا بعذر عام هو: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، فهؤلاء يرتّبون اعتذاراتهم بشكل آخر، كالمسوّغات التي أشرنا إليها؛ من التصرّف باللغة والانحراف في المفاهيم والتلاعب بالمصطلحات. وظاهر من تحويل الزنا إلى مجرد شيء بين الإنسان وربّه –ليس للجماعة دخلٌ فيه إلا إذا أعلن– نرى فيه تمهيدًا للتقليل من أهميّة وخطورة هذه الجريمة، وتحويلها إلى شأن شخصيّ يخضع لرغبات الفاعلين، وفي ذلك تدمير للأسرة وللمجتمع والحضارة والمدنيّة، أعاذنا الله من الانحراف بكل أنواعه وأشكاله.

ثم تتعرض الآية لقتل النفس، وهي الجريمة الخامسة المنهي عنها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: التي بيّن الله حُرْمتها ومكانتها ووجوب احترامها وحمايتها، قال جلّ شأنه: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ليس المراد به النزول بهذه القضايا، أو بأحكام هذه القضايا، إلى مستوى

التوصية غير الملزمة، بل يفيد ارتباطها بأنّها مما وصّى الله به، بمعنى الاستمرار والدوام وعدم قبول التغيير أو النسخ، فهي أمورٌ كليّة ما ينبغي التهاون فيها ولا التنازل عنها بأيّ حال من الأحوال.

ثم تنتقل الآيات إلى النهي عن مجرد الاقتراب منه، في ذلك دليل على النهي عن مقدّماته وما قد يؤدي إليه، والنهي عنه كذلك: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي بأي طريقة وأضمن طريقة تحفظ مال اليتيم ولا تؤدي إلى التفريط به أو الاعتداء عليه.

ثم يأمر الله -تبارك وتعالى- بالوفاء بالكيل والميزان، وعدم بخس الناس حقوقهم، والتزام العدل في المعاملات، وتجنّب أي شيء يمكن أن يؤدي إلى تجاوز حالة العدل والقسط، وتؤدي إلى الدخول في الجور، ويُبيّن -تبارك وتعالى- أنّ طبيعة تكليفاته -جلّ شأنه- وأوامره ونواهيه منسجمةٌ مع طاقات الإنسان وقدراته، ليس فيها حرجٌ ولا إصر ولا أغلال، ولولا علم الله -تعالى- بأنّ ذلك داخل في وسع الإنسان واستطاعته لما كلّفه به.

ثم ينتقل إلى الأمر بالعدل في القول؛ فالعدل لا يتعلّق بالأفعال وحدها، بل في الأقوال كذلك، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، فلا ينبغي أن تحمل الإنسانَ عواطفُه ومشاعره على مجانبة سبيل العدل والخروج عنه، لا في القول ولا في العمل ولا في أي شيء آخر، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فبعد أن فصّل ما تقدّم أكّد على أنّ ذلك كله مندرج تحت عهد الله تبارك وتعالى، وأنّه من مقتضيات الوفاء بالعهد بين الله والإنسان. وتأتي فاصلة الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ توصية دائمة مستمرة دوام عهد الله معكم، وهذه التوصيات هي التي تذكركم بذلك العهد الإلهيّ.

ثم ينتقل إلى بيان أنّ الالتزام بما تقدّم هو أمر ميسّر، فتردّدون في صلواتكم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فهذا هو الصراط المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لتهتدوا ولتتقوا ولتنجحوا وتفوزوا في اختبار الابتلاء، وأن أيّة سبل أخرى تتبعونها ستتفرق بكم عن سبيله، وتوصلكم إلى الضياع، فإذا أردتم التقوى فعليكم بالتزام هذا الصراط المستقيم الذي جاء الكتاب الكريم به وأمرتم بالتزامه وعدم السير في سواه، لتتحققوا بالتقوى وتتحلوا بالتزكية، وتكونوا من المهتدين.

ثمّ يُبيّن –جلّ شأنه– أنّ هذا الذي وصّاكم به قد وصّى به أممًا سبقتكم، وجاء به الأنبياء قبل نبيّكم، ونزل في كتب أنزلت عليهم، ولقد ردّ الله –سبحانه– على المشركين كل ما افتروه بهذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾،وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَهُوَ

الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾ جاءت هذه الآيات ترد على المشركين جملة وتفصيلاً، وتعلن إعادة الحاكميّة في هذه الأمور وغيرها إلى الله ربّ العالمين، الذي فصّل في كتابه الكريم كل شيء، فذكر -سبحانه- خمسة نواهي وخمسة أوامر، وكرّر الأمر بالوصيّة ثلاث مرّات، حتى عدّ العلماء هذه الآيات الثلاثة أنّها «الوصايا العشر»، ودعوته لهم للحضور إليه واستماع ما يتلوه توكيد لسلب حق التشريع منهم ومِن سواهم. وقد بدأ -سبحانه- بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ «ألا» كلمة أدغمت فيها «أن» التفسيريّة «بلا» الناهية؛ لأنّ تجاوز التوحيد واللجوء إلى الشرك رأس كل تلك المعاصي والمنطلق لها، ولو آمنوا بالله -تعالى- ربًّا ووحّدوه لأدركوا أنّ التحريم والتحليل شأن يختص به جلّ جلاله، وجمهرة العلماء أكدوا على أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه. كما أنّ النهي عن الشيء أمر بضده، ففي الأوامر الخمسة والنواهي الخمسة تلاحظ الأضداد كذلك.

النجم السادس عشر في إنزال الكتب وعاقبة الإيمان أو الكفر بها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا

أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٤-١٥٩)

قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)﴾، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾، وبيّن أنّه -جلّ شأنه- بذلك قد أقام عليهم الحجّة، وألزمهم بها، وحال بينهم وبين أن يحتجّوا عليه بأيّ شيء، فقال جلّ شأنه: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦)﴾ هم اليهود والنصارى، ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾؛ أي في هذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليكم هدى ورحمة، وبذلك يتضح لكم شناعة وقبح مَنْ كذّب بآيات الله وانحرف عنها، والعدل في مجازاته بسوء العذاب، ويورده -جلّ شأنه- في معرض سؤال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ(١٥٧)﴾، فمَنْ أكثر ظلمًا ممّن كذّب بآيات الله المنزّلة وصدف عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون.

ويتسائل بعدها: هل ينظرون أو ينتظرون لكي يتخلّوا عن تلك الكبرياء الفارغة التي حملتهم على أن يصدفوا عن آيات الله، وينحرفوا عنها: ﴿إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يكون الوقت قد مضى، وأمد الاختيار في هذه الحياة قد ولّى،

وآنذاك: ﴿لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا(١٥٨)﴾ مما فصّل الله سبحانه وتعالى، فإذا كان ذلك هو ما تنتظرونه أيُّها المشركون لتؤمنوا فانتظروا إنّا منتظرون معكم لنرى العاقبة السيّئة التي ستؤولون إليها، والحسنى التي سيمنّ الله علينا بها. وإذ حذّر الله –سبحانه وتعالى– من اتباع السبل غير الصراط المستقيم، ونهى عن سلوكها، منبّهًا إلى أنّها ستؤدي إلى تفرّقهم عن سبيل الله، وبيّن أنّ هناك أناسًا سلكوا تلك السبل ففرّقوا دينهم، وتحولوا إلى شيع وأحزاب ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وهؤلاء لاينبغي أن يكون بيننا وبينهم أيّ تشابه أو أيّ صلات مهما كانت قرابات النسب أو المصالح أو الجوار، إنّما أمرهم موكول إلى الله، فهو – وحده– الذي يتولى جزاءهم ثم ينبئهم بشناعة ما فعلوا واستحقاقهم كل أنواع العذاب بما كانوا يفعلون.

النجم السابع عشر: خاتمة السورة في تلخيص أهم موضوعات السورة من إثبات للرسالة والألوهيّة ودحض سائر دعاوى المشركين.

قال تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٦٠–١٦٥).

ثم يعقب الله –سبحانه وتعالى– ذلك ببيان عدله بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٦٠)﴾، فلا تضاعف السيئات ولا يُزاد فيها، بل يقتصر عليها كما هي. فإذا رغب العبد في التخلص منها ومن آثارها ومن عقابها فإنّ السبيل مفتوح أمامه لذلك؛ بحيث يُعفى من الجزاء بمثلها، ألا وهو سبيل «التوبة» والإنابة إلى الله، واستغفاره والرجوع إليه بشروطها الواردة في آيات أخرى، منها آيات «سورة النساء».

ثم يؤمر –عليه الصلاة والسلام– بأن يعلن للجميع أنّه سيد المهتدين وإمامهم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١)﴾، وهذا الصراط المستقيم لم يكن بدعًا ولا خاصة بسيدنا رسول الله ﷺ؛ بل إنّه دين قيّم، هو امتداد لملّة إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم كان حنيفًا مائلا عن كل الأديان، متنكّبًا سائر السُّبل إلى سبيل الهداية وهو الصراط المستقيم؛ لذلك كان صاحب دين قيّم، وكان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، وبعد الإعلان عن الالتزام بـ«الملّة الإبراهيميّة» والصراط المستقيم والدين القيّم يعلن عن إخلاصه في ذلك كلّه، إخلاصه لله –تبارك وتعالى– في كل ما يأخذ ويدع، وفي بيان ما يُحلّ ويُحرّم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)﴾ وذلك ليؤكد على القاعدة القرآنيّة والرؤية الكليّة التي أكدت عليها كل الشرائع، فهي أساسها ودعامتها. ويؤمر أن يتسائل ويُسائل أولئك جميعًا تساؤلَ المستغرب المتعجب، الذي يريد أن يُثير التعجّب في نفس مَنْ يسمعه، فيُؤمر أن يقول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكيف أفعل وهو ربّ كل شيء، ولا ربّ لأي شيء سواه، ولا إله لأيّ شيء غيره، ولا خالق ولا بارئ ولا مصوّر إلا هو.

والدعامة الأخرى أنّه لا تكسب كل نفس إلا عليها، فما يكتسبه الإنسان وما يفعله من خير أو شرّ فإنّه له وعليه، وذلك من عدل الله جلّ شأنه، ومن عدله كذلك ألا يحمل أحد وزر أحد: ﴿وَلَا تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(١٦٤)﴾، فلا صنم ولا شفيع ولا مَنْ تتخذونه إلهًا -بضلالكم- يحمل من أوزاركم شيئًا يوم القيامة، بل سيحمل أولئك -الذين أوهموكم أو توهمتم أنّهم سيحملون عنكم بعض أوزاركم- أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم يوم القيامة، ليُكبّوا في النار، ويراهم أولئك الذين اغترّوا بهم وانخدعوا بهم وأشركوهم بربهم؛ ليروا عاقبة الشرك وعاقبة أولئك الذين اتخذوهم شركاء وجعلوهم آلهة: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾، سواء في مجال العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق والسلوك والمعاملات أو أي شيء آخر؛ وذلك لأنّه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾؛ ليحقق الابتلاء والاختبار، ولتترابط المنظومة التي وضعت لحياتكم من العهد حتى الجزاء، فتختبرون فيما أوتيتم، وتجازون بأعمالكم، فمَنْ يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومَنْ يعمل مثقال ذرة شرًا يره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١٦٥)﴾، فلا يذهب وهمُ أحد من أهل الشرك أو الظلم أو الوقوع في المحرّمات أنّه سيُفلت من عقاب الله، أو أنّ الله -تبارك وتعالى- قد يغفل عنه، فهو سريع العقاب، فمثل هؤلاء لا يفلت أحد منهم من عقابه، وإنّه لغفور رحيم للذين تابوا وأنابوا واتقوا وأحسنوا، وإذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا، ويتوبون -حين يتوبون- توبة نصوحًا خالصة لله تبارك وتعالى.

الدروس المستنبطة:

حينما ندرس هذه الآيات الكريمة الواردة في هذه السورة، ونحاول أن نتبيّن أسلوب القرآن الكريم في عرض قضايا الحلال والحرام، والأساليب التي اتخذناها فيما بعد لعرض هذه القضايا في كتب الفقه والأصول، نجد ما يلي:

أولا: إنّ كتبنا الفقهيّة –حينما بدأ وضعها وتدوينها– التزمت بأطر موضوعيّة تعتمد –أحيانًا كثيرة– على اقتطاع الآية من سياقها، أيًّا كان ذلك السياق، ووضعها في إطار موضوعي، مثل كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وما إلى ذلك. أمّا القرآن المجيد فإنّه يجمع دائمًا بين الأشباه والنظائر في إطار من التذكير بالعقيدة، وبصفات الله –سبحانه وتعالى– الملائمة لما يعرض، وببيان سلامة تشريعات القرآن وقوتها ومتانتها، مع بعض الإشارات إلى تشريعات المخالفين، والشوائب الكثيرة التي تشوبها انطلاقًا من الهوى والرغبات وما إلى ذلك، فللتشريع قواعد ودعائم يُقام عليها لا تخضع لرغبات أفراد؛ لأنّ الشرائع تأخذ بنظر الاعتبار قواعد العدل والمساواة والعموم والشمول، فخطاب الحلال والحرام في القرآن يخاطب الإنسان في كينونته كلها، ويهيّء عقله ونفسه ووجدانه ومشاعره –كلها– لقبول التشريع القرآني والإقبال عليه، وتبنّيه بارتياح، وحسن تنفيذه وتطبيقه، مع كثير من عوامل المرونة والسعة والتخفيف والرحمة والتيسير ورفع الحرج، فتفارق آيات الأحكام آنذاك طبيعة التأليف القانونيّ والفقهيّ، وما تتّسم به من صرامة وجمود، لا يتسم القرآن المجيدبه. وآنذاك تأتي فواصل الآيات لتنبّه إلى أنّ ذلك الخطاب حين يُتبنى كما أنزله الله فسوف يؤدي، لا إلى الخلاص الفرديّ وحده، بل إلى خلاص الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والجنس البشريّ كلّه، وتمكينه –أي الجنس البشريّ– من ممارسة الحياة الدنيا باعتبارها حياة طيبة، وعند المآل إلى الآخرة تكون العاقبة رضى الله والجنة.

ثانيًا: في الخطاب التشريعي القرآني تُربط التشريعات بمآلاتها ونتائجها، فتبتعد عن الشكليّة والانشغال بصور الأعمال وهيئاتها وأشكالها عن آثارها ومآلاتها، لا في الدنيا، بل في الآخرة كذلك،

والخطاب الفقهيّ في القرآن الكريم يجعل العقيدة حاضرة باستمرار في كل شيء، وفي كل شأن تشريعيّ، كما يجعل المآل –في الدنيا وفي الآخرة– ماثلا أمام أنظار المكلّفين، فيصعب الانغماس بالشكليّة أو بالصور وتناسي أو تجاهل الحقائق والمآلات.

ثالثًا: يهتم الخطاب القرآني التشريعي بكليّات أساسيّة، أهمها: «التوحيد لله تعالى»، و«التزكية للإنسان»، و«العمران للكون».

رابعًا: لا يفصل الخطاب التشريعيّ –في القرآن– بتلك الفواصل الحادة –التي عرفتها كتب الفقه والقانون– بين «فقه الفرد» و«فقه الجماعة» و«فقه الأمة»، بل يجمع بينها، بحيث يجعل كلا منها يشدّ عضد الآخر.

خامسًا: يربط الخطاب القرآني التشريعي بين التربية النفسيّة والتنشئة والحكمة في التنزيل على الواقع بمنهج متماسك، يجعل من الصعب إيجاد الفواصل بينها، كتلك الفواصل التي عرفتها الأساليب القانونيّة والفقهيّة في هذا المجال.

سادسًا: الخطاب التشريعي في القرآن ينبّه القارئ المتدبّر الفقيه إلى ما يمكن أن يمتد به عبر الزمان، بحيث يكون ما ذكره القرآن بمثابة بداية مفتوحة، تعطي للمجتهدين المتدبّرين الفرصة للبلوغ بها إلى غايتها، ويمكن أن نضرب مثلا لهذا بالتشريعات المتعلقة بقضايا الرقّ وتعدد الزوجات، وما إلى ذلك مما كان في مقدور المجتهدين الامتداد به إلى غايته بالاستفادة بخصائص الشريعة وما يمكن تسميته بـ«فلسفة التشريع».

سابعًا: الخطاب التشريعي في القرآن لا يقتصر على بيان تقييمه للفعل الإنساني، ووضعه في دائرة الحرام أو الواجب أو المنهي عنه أو المأمور به، لكنّه يُبيّن كثيرًا من جوانب علاقته بتحقيق الحياة الطيّبة

في الحياة الدنيا والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة، مع إشارات -لا تخفى على المتدبر- لما قد يُصيب أولئك الذين يخالفون أمره أو يقعون في ممارسة نواهيه، وذلك إضافة إلى «مبدأ الالتزام» الذي لا يمكن أن يحققه شيء بمثل ما يفعل القرآن المجيد.

حينما ندرس الكتاب الفقهيّ نفتقد الجزء الكبير من هذه الأمور في إطار تصنيفه بالطريقة التي صنف بها. ومن ناحية يصبح البحث فيما يمكن أن نسميه " فقه القرآن الكريم" أمرا في غاية الأهمية لابد من ممارسته وبناء أصوله وإقامة العملية التعليمية للفقه والأصول خاصة على قواعده.

ثامنًا: الكلمة أو المفردة في القرآن هي بمثابة «اصطلاح إلهي ربانيّ»، قد يمكن أن تكون مترادفة؛ لأنّ الترادف لدى أهل اللغة من البشر يقوم على وجود سعة في الألفاظ ومحدوديّة في المعاني، فيترادف لفظين أو ثلاثة على معنى واحد، وهذا أمر لا يمكن أن يُنسب إلى الاستعمال الإلهيّ للمفردة؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قد ضبط دلالات الألفاظ على المعاني، وفصّل الكتاب على علمه، وعلمهُ -جلّ شأنه- أكثر انضباطًا من أيّة لغة علميّة، فلا زائد ولا مشترك ولا مترادف ولا تورية، فالمفردة محكمة في آية محكمة وسورة محكمة وفي كتاب حكيم، والمدلول أو العائد المعرفيّ للكلمة القرآنيّة محدّد منضبط، تم إحكامه أولا ثم تفصيله ثانيًا، والإحكام والتفصيل حصلا من لدن حكيم خبير، فليس شعرًا تفرض الأوزان وضرورة الشعر فيه على الشاعر أن يُرادف ألفاظًا أو يشرّك ألفاظًا مع أخرى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس:٦٩)، وعربيّة القرآن لم تنزل به إلى مستوى لغة ولهجات الأعراب والعرب، بل رفع القرآن المجيد العربيّة وشرّفها وجعلها قابلة للاستعمال الإلهي بجعل وتيسير إلهيّ منه تبارك وتعالى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان:٥٨)، ويسّره -جلّ شأنه- حين قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)، وقال: ﴿حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ

لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف:١-٤)، وفي الجعل إشارة إلى صيرورة، فأصله محفوظ لدى الحكيم العليم سبحانه، وهو مَنْ يسّره تيسيرًا، ونزّله تنزيلا ليخاطبكم به، فإذا أراد الله الأمر بشيء فلا تتقيد صيغة الأمر بـ«افعل»، وإذا أراد تحريم شيء فلا تتقيّد صيغة التحريم بـ«لا تفعل»، وهناك فروق بين «اللمس» و«المس» و«العورة» و«السوءة» و«الفرج»، و«راعنا» و«انظرنا»، وكذلك سائر مفردات القرآن.

وهناك فرق بين «النهي» و«التحريم»؛ ولذلك نجد في هذه السورة الكريمة استعمال الله -تبارك وتعالى- لفظ «حرّم» في: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ(١٥١)﴾؛ لأنّ «التحريم» سلطة إلهيّة لا شريك لله فيها، فحتى رسول الله ﷺ لا يملك شيئًا منها، بل هو منفذ للأمر بالتلاوة على الناس. أمّا «النهي» ففيه مجال للاجتهاد ولمعرفة ما إذا كان نهي تحريم أو كراهية، بحسب مستوى القطعيّة والظنيّة فيه. وما عرف بأصول الفقه نجده في الخطاب القرآني التشريعي، مضمَّنا فيه، فكثيرًا ما يُشار إلى قواعد أصوليّة تسمح بالامتداد أو التكرار، سواء أكان في الزمان أو المكان أو الإنسان، أو يُشار إلى أنّ المطلوب مرة واحدة.

ولنتبين مزايا الخطاب التشريعيّ القرآني على الكتابات الفقهيّة والمدونات القانونيّة نحتاج إلى القراءة المتدبرة المتتبعة لكل آيات الكتاب الكريم، مع وقفات طويلة عند الآيات التي اشتملت على تشريعات كليّة أو جزئيّة، وكذلك الآيات التي قصّت علينا أنباء الأمم الأخرى ومخالفاتها أو موافقاتها للتشريعات التي أنزلت فيها.

والسورة تقدّم لنا دروسًا في «حركة التاريخ والأمم»، وعلاقة ما يُعرف «بنظريّة التداول» فيها، وتبيّن ضرورة الربط بين نهوض الأمم وتراجعها، وسيادة الحضارة وأفولها بمنظومات القيم، ليس القيم الخاصّة التي تبتكرها بعض الأمم والشعوب لنفسها، بل «القيم الإنسانيّة» وترسخها هي التي تغذي نفسها بعوامل الاستمرار والبقاء، بل النموّ والدوام، وذلك مثل قيم العدل والحريّة والمساواة وتكريم الإنسان وصيانة ضرورياته وحاجياته، بل وكماليّاته، فالأمم والحضارات التي تحافظ على هذا النوع من

القيم تكون قد وضعت نفسها على صراط مستقيم من «السنن الاجتماعيّة والكونيّة» التي تمدها على الدوام بالخلايا المجدّدة لحياتها وحيويتها وفاعليتها.

الخاتمة:

وبعد، فهذه «سورة الأنعام»، السورة التي يمكن القول إنّها «سورة التوحيد» أو «العقيدة»، ففيها تم تفصيل أركان وقواعد التوحيد، فلو لم ينزل من القرآن المجيد –في عرض عقيدة التوحيد، وأركان الإيمان– إلا هذه السورة لكفت وشفت. فقد عرضت أركان «عقيدة التوحيد» إحكامًا وتفصيلاً مع التدليل والتعليل، بحيث يُدرك المؤمن حقيقة كل ركن من أركان التوحيد مع الأدلة الدالة عليه، والحكمة أو العلّة في التكليف به في إطار العقيدة، ففيها ما يمكن أن نسميه «عقلنة العقيدة». فلا تُعرض بوصفها أركانًا غير معقولة المعنى يؤمن بها المؤمن دون تدبر أو نظر في حقائقها. بل إنّ السورة قد تكفّلت ببيان آثار العقيدة وأركانها –إحكامًا وتفصيلاً– في حياة المكلفين العمليَّة، بحيث يتعلم المتدبر فيها كيف يمكن تحويل العقيدة إلى تصور ورؤية ونظام حياة وخلق وسلوك يؤول إلى ثقافة ملاحظة ومشاهدة.

لقد فصّلت السورة «عقيدة التوحيد وأدلته» بعيدًا عن ذلك التجريد الجاف الذي تعرض كتب «علم الكلام والعقائد» القضايا الاعتقاديّة به، وبيّنت ما يجب على المؤمن معرفته من صفات الله –تعالى– وآياته، وتولّت الردّ الحاسم على سائر الشبهات التي أثارها الكفار بالهدم، وألزمتهم الحجّة بعد الأخرى بمصدر هذه العقيدة؛ القرآن المجيد، والرسول الذي تلقّاه من لدن حكيم خبير، حيث بيّنت صدقه في دعوته، وأمانته فيما بلّغه من رسالة ربّه، وحرصه على هداية الناس كافة دون تمييز، وتأييد الله –تعالى– له، وعنايته –جلّ شأنه– بإقامته على الطريقة، وتحذيره الدائم المستمر لئلا يحزنه ما يقوله المشركون عنه وفيه، أو يعرض عن أولئك المقبلين عليه وعلى الإيمان به –من عامة الناس وفقرائهم ومساكينهم، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه– انشغالاً بأولئك الذين يدعون أنفسهم أكابر، أو استجابة لرغبات أولئك المستكبرين الذين يرون أنفسهم عظماء، ويطلبون منه أن يبعد هؤلاء الذين يطلقون عليهم أرازل، لا لشيء إلا لأنّهم أقل منهم غنى أو عددًا، ولا يملكون –في ظلّ قيم

الجاهليّة- ما يؤهلهم للانخراط بين صفوف أولئك الذين يريدون علوًّا في الأرض، ويسمّون أنفسهم أكابر وعظماء وهم لا يملكون من المؤهلات ما يسمح لهم بأن يسلكوا في عداد الأكابر أو العظماء.

إنّ السورة -بجميع آياتها- اتجهت نحو «العقيدة وأركانها»، فدارت آياتها -كلّها- في ذلك، وحين تناولت قصة سيدنا إبراهيم حصرت اهتمامها في بحثه -عليه السلام- عن التوحيد والإيمان بدليله، ليوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض، ليكون حنيفًا مسلمًا بعيدًا عن الشرك وملّته، وكيف آتاه الله الحجّة على قومه المشركين من أهل الأوثان، بتوفيقه له لتلك الحجّة البالغة التي جمع فيها -عليه السلام- بين القراءتين، ليقدم لنا منهجًا في الجمع بين القراءتين في إطار البحث عن العقيدة، فهو يبحث عن الكون ثم يتجه إلى الخالق الذي خلقه؛ ليعينه في بحثه، ويسأله ليسدد خطاه ويوصله إلى النتيجة المطلوبة، وذكر -سبحانه- فيها أسماء الأنبياء من ذريته وذرية نوح دون ذكر قصصهم، بل اكتفى -جلّ شأنه- ببيان أنّهم كانوا على الهدى، وأنّ على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- أن يهتدي بهداهم؛ لأنّه لم يكن بدعًا من الرسل، لكنّه حين ذكر سيدنا موسى ذكر الكتاب الذي أنزله عليه نورًا وهدى للناس، وكيف جعله قومه قراطيس يُبدون بعضها ويخفون أكثرها؛ ليُبيّن مدى انحراف قوم موسى عن رسالته وشريعته، وفيها تنبيه لأمّة مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلّم- لئلا تسلك مثل سبيلهم، فتُجزّئ القرآن وتجعله عضين، مثل أعضاء جسد منفصلة عنه، كما أنّ ذكر مَنْ ذكر في السورة من النبيين جاء في إطار تفصيل لضرورة إيمان المؤمنين كافة بسائر النبيين والمرسلين، سواء في ذلك مَنْ قصّ الله -سبحانه- علينا قصصهم ومَنْ لم يقصص علينا قصصهم.

وكل ذلك قد فصّلته هذه السورة الكريمة تمامًا بأسلوب قرآني بليغ، جامع بين قدرات الإقناع وطاقات التأثير. نجد فيها صفات الله مبيّنة مشروحة بذكر أفعاله جلّ شأنه، وبيان سننه في الخلق والتكوين والتقدير والتدبير، وعرض آياته في النفس والآفاق، بعيدًا عن كل ما يُثير الجدل أوآثاره -فيما

عُرف بعلم الكلام- حول التشابه والتشبيه والتعطيل والتأويل وما إلى ذلك مما تنزّه القرآن عنه. ولو أنّ كليّات أصول الدين والمدارس الإسلاميّة المعنيّة بتدريس العقائد درّست -بدلاً من تلك الكتب الجوفاء التي كثيرًا ما تُثير الشبهات- هذه السورة لتعليم التوحيد والعقيدة، وطبائع الاجتماع، وملكات الأخلاق، لكان خيرًا للإسلام والمسلمين، وأكثر توفيقًا؛ ولتبين للدارسين كيف تؤثر العقائد في الأعمال، وما يترتب عليها في الدارين من الجزاء، وكيف يُورد القرآن حقائق الاعتقاد، ويُستدعى مَنْ يريد المناظرة أو الجدال أو البحث عن الحقيقة أو الفهم للقيام بذلك؛ ولكن بأسلوب القرآن الجامع بين إقناع العقول والتأثير في القلوب، واستثارة الوجدان، وإنعاش الفطرة وتهيئتها للاتصال بالقرآن؛ ليقترن اليقين بالإيمان مع حب التعظيم لله -تعالى- والخشوع والإخبات لجنابه، والخوف والرجاء منه.

والقرآن -وهو يجادل عن عقيدة التوحيد- يذكر شبهات المشركين والكفار ومَنْ إليهم، فيردّها، ويُظهر عوارها، ويطهر القلب والنفس والوجدان منها، ويبرز ما فيها من قبح وتهافت وبطلان، ويقيم الدليل والحجّة على أصحابها، ويعمل على استنطاقهم، وتوجيه الأسئلة التقريريّة لهم؛ ليقروا بأنفسهم ببطلانها وتهافتها، وتذكيرهم بأنّ سبب إعراضهم عن عقيدة التوحيد -كما جاء القرآن بها- ليس لخلل فيها ولا لعيب اكتشفوه فيها، بل لفساد أنظارهم، واتباعهم أباءهم وتقليدهم، وأنّ ذلك سوف يؤدي بهم إلى أبشع مصير. وقد يعرض لهم بعض مشاهد القيامة، وهم يُبدون الندم حيث لا ينفع الندم، ويظهرون الحسرة حيث لا ينفعهم شيء، ولا يوقفوا من عجلة اتجاههم نحو النار والسقوط فيها، فلن ينفعهم كذبهم وهم يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٢٣)، ولن ينفعهم نحو قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧)، ولن يُغير من مصائرهم ذلك، وكانت لديهم الفرص الكاملة لذلك كله، فهم كانوا صُمًّا وعُميًا وبُكمًا في الظلمات، يدعون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

وهؤلاء قد كانوا عاهدوا الله من قبل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ (الأنعام:١٠٩)، لكنّهم، حين جاءتهم الآية، ونزل فيهم الكتاب، وجاءهم رسول من أنفسهم، لبث فيهم عمرًا من قبله،لم يلحظوا عليه ما يريب؛ لا في جاهليّة ولا إسلام، ومع ذلك، ومع قسمهم بأنّه لو جاءتهم آية كما جاءت الأولين ليؤمنن بها، فلم يؤمنوا، ولم يكونوا أهدى ممن سبقهم؛ بل كانوا أعتى وأضلّ سبيلا. وظلوا فى طغيانهم وعنادهم يعمهون، وماذا عليهم لو صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وآمنو بالله ربًّا، وآمنوا به إلهًا، ووحّدوه في ربوبيّته، وفى ألوهيّته، والتفتوا إلى كل تلك الآيات والبراهين التي ساقها القرآن، إنّهم قد أشركوا فى الألوهيّة ولم يجادلوا كثيرًا فى الربوبيّة، لكن التوحيد لا يمكن إلاّ أن يكون كاملاً، فلا يكون هناك شرك أو إشراك؛ لا في الألوهيّة ولا في الربوبيّه، فلا يُغني التوحيد في الربوبيّة عن التوحيد فى الألوهيّة ولا عكس.

ولقد بيّنت هذه السورة ذلك بجلاء، وتناولت الإيمان والتوحيد والشرك والشفاعة والربوبيّة والألوهيّة والجزاء، وسبل نجاة الناس وخلاصهم، وأمنهم وسعادتهم أو شقاءهم، وأنّ ذلك –كله– إنّما يكون بأعمالهم، ولمزيد من التوضيح لهؤلاء العرب الذين كانوا يزعمون أنّهم على ملّة إبراهيم؛ ذكر لهم إبراهيم ومجادلته لقومه الذين كان شركهم مغايرًا بعض الشيء عن شرك عرب الجاهليّة، فقد كانوا يعبدون الكواكب، ويصوّرون لكل كوكب صنمًا، كأنّه تجسيد لذلك الكوكب أو نائب أرضيّ عنه؛ فيعبدونه، مسوّغين لأنفسهم تلك العبادة بشتى المسوغات، ولا شيء يسوغ الشرك بالله، أو يقلل من خطورته على عقليّة الإنسان ونفسيّته وقلبه وفطرته ورؤيته ووجهته.

ثم تعرّضت السورة إلى الركن الثاني من أركان العقيدة، ألا وهو حجج الوحي والرسالة التي كانوا يحاولون طمسها، ويستكثرون أن يوحي الله لرجل منهم من دونهم، فهناك أدلّة ساقها الله –تبارك وتعالى– على الوحي وعلى نزول القرآن –بالذات– على سيدنا مُحَمَّد –صلى الله عليه وآله وسلّم– ساق أدلتها

وحججها مع أدلة التوحيد، فجمع في تلك الأدلة والحجج بين الاحتجاج للتوحيد والاستدلال عليه، وبين الاحتجاج لصدق مُحَمَّد في رسالته –صلى الله عليه وآله وسلّم– وصدقه فيما ذكر من أنّه يوحي إليه، وصدقه –صلوات الله وسلامه عليه– في نزول القرآن عليه؛ بل تحديه لهم ولسواهم بذلك القرآن، ثم ساق الأدلة على صدقه وصدق مَنْ سبقه من الرسل، وذكر أهم الرسل والنبيين من ذريّة نوح وذريّة إبراهيم، مبينّا أنّ هذا الوحي الإلهي هو من أمر ربي، وهو لطف ورحمة منه بعباده، لا ينبغي أن يُنفى أو يُستبعد، فالأدلة عليه كثيرة، حفلت السورة ببيان الكثير منها، وبيّنت معنى الرسالة، وموضوع الوحي، والأدلة عليه، ووظائف أولئك الرسل، وردّ الشبهات التي تشدّق بها هؤلاء، وبيّن أنّ الرسول بشر مثلهم، ويغلب أن يختاره الله من بين قومه، ويعصمه من أن يعصي الله ما أمره، أو يخون بتبليغ ما أرسل به، أو يضيف إليه أو يحذف منه، والعلم الذي يمنّ الله به على رسله علم موحى منه –جلّ شأنه– لطفًا منه، وتفضّلا غير مكتسب؛ ولذلك فإنّ النبيّ لا يُرشّح نفسه، ولا يدري قبل النبوّة أنّ الله قد اصطفاه، ولا يسعى لذلك، بل يصطفيه الله اصطفاء، فيُوحي إليه ما يشاء، بواحد من الطرق التى ذكرها الله –جلّ شأنه– في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١)، ومهمته تعليم الناس ما يأمره الله بتعليمهم إيّاه؛ ليهتدوا وليمرّوا بين الخير والشر، وتلاوة ما يُوحى إليه عليهم، وتزكيتهم به، وبيان ما قد يختلفون فيه، ويعمل الرسل على هداية أقوامهم بذلك، وأنّ محمدًا –صلى الله عليه وآله وسلّم– خاتم النبيّين والمرسلين، جاءهم وبعثه الله إلى الناس كافة بالحق من عند الله، وببصائر يُبْصرها مَنْ هداه الله، وأنّ هذا القرآن كلمة الله؛ قد تمّت صدقًا وعدلاً، وأنّ ما جاء به إنّما جاء به لا من عند نفسه بل كان على بيّنة من ربه، وجاءهم بما يهدى للتي هي أقوم، وأنّ ما جاءهم به هو الدّين القيّم، والصراط المستقيم، وأنّ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– هو أول المسلمين والمهتدين والمتبعين لما جاء في هذا الوحي، فلن يخالفهم إلى ما كان ينهاهم عنه، وظلّ يؤكد عليهم ذلك ليعلموا أنّ هذا الكتاب منزّل من ربه بالحق، وأنّ الله يقصّ الحق وهو خير

الفاصلين، وأنَّ المكذّب به إنّما يكذب بالحق، وهذه البصائر لهم مطلق الحريّة بأن يستفيدوا بها أو يعموا عنها، فمَنْ أبصر هذه البصائر واهتدى بها فلنفسه، ومَنْ عمي فعليها، وهذه البصائر تؤدي إلى معرفة يقينيّة؛ قائمة على حجج نقليّة وعقليّة وعلميّة، تؤدي إلى الرحمة والهداية والتقوى، فهو مبارك، جامع لأسباب الهداية الدائمة، هدى الله رسوله به إلى صراط مستقيم؛ دينًا قيّمًا، وهو يريد أن يهديكم إليه، ويشارككم هذه البصائر، ويجعلكم قادرين على إدراكها، وهذا الكتاب صدق -كلّه- وحق -كلّه- في أخباره وحكمته، وعدل في أحكامه، فماذا تريدون أيّها المشركون؟ وأين تذهبون معرضين عن هداية هذا الكتاب الذي نزل بالحق والصدق والعدل والقيم، والذي يهدي للتي هى أقوم، ويبين لكم كل ما أنتم بحاجة إلى معرفته، يحمله إليكم واحد منكم، كلكم متفقون على أنّه أكملكم عقلا، وأحدّكم نظرًا، وفهمًا وفضلاً، ليس بجبّار ولا مسيطر ولا متعنّت، رؤوف بكم رحيم، عزيز عليه ما عنتّم، حريص عليكم، يريد هدايتكم وإبعادكم عن الضلالة، والأخذ بحجزكم عن النار، هو مبشر ومنذر، لكنّه لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، إذ إنّ الضرّ والنفع محصوران فى الله جلّ شأنه، ولا يملك لكم موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا يعلم الغيب؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وما هو بملك، ولن يستطيع أن يستجيب لكل ما تطلبونه منه، فأنتم تريدون منه ما هو فوق طاقته، وأكثر من قدرته؛ لأنّه ما هو إلا بشر مثلكم، فيما عدا اصطفاء الله له؛ لحمل الرسالة وأداء الأمانة، والنصح لكم وللبشريّة جمعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

هذا الكتاب

ينطلق من فكرة مفادها أنّ القرآن المجيد نزل على قلب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– في حياته، وبقي على وجه الأرض بعده يحمل الهدي الإلهيّ والمنهج الربّانيّ للبشريَّة كلها، فهو بمثابة النبيّ المقيم الجامع لتراث النبيّين كافة، والقادر على انقاذ الانسانيَّة وتحقيق خلاصها وأمنها. والمؤلِّف الفاضل حاول أن يقدم نموذجًا لتفسير القرآن بالقرآن تفسيرًا قائمًا على الجمع بين القراءتين والانطلاق من الوحدة البنائية للقرآن، وتعليم الناس كيف يحاورون القرآن ويستخلصون منه حلولاً لمشكلاتهم وعلاجًا لأزماتهم وطاقةً لمواجهة التحديات التي تحيط بهم. فرسالة الكتاب الأساسيّ إثبات قدرة القرآن على أن يفسّر نفسه بنفسه وأن يغني قارئيه والذين يتلونه حق تلاوته عن التيه في متاهات التفاسير بمختلف أنواعها، وأن يعلّمهم كذلك منهج رسول الله في تفسير القرآن بالقرآن، وكيف يلجأون إلى القرآن في مختلف القضايا وكيف يثوّرونه ليتجلّى عليهم بأنوار هدايته ويأخذ بأيديهم إلى التي هي أقوم، ويساعدهم على تفسير أحداث حياتهم بالحق وأحسن تفسيرًا. وهو من أفضل الهدايا التي نقدمها لمحبي القرآن وطالبي نواله والله تعالى ولي التوفيق.

المؤلف في سطور

طه جابر العلواني

من مواليد العراق عام ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٥.

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٣.
- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨.
- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٧٨ هـ –١٩٥٩.
- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ ثم ترأسّه مدة عشر سنوات ١٩٨٦_ ١٩٩٦م.
- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ ١٩٩٦ وحتى الآن.
- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

أحدث المؤلفات:

- المحصول في أصول الفقه للرازي. تحقيق ودراسة. القاهرة: دار السلام، ٢٠١١.
- أفلا يتدبرون القرآن. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠.
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠.
- معالم في المنهج القرآني. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠ .
- نحو إعادة بناء علوم الأُمّة الاجتماعية والشرعية بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- مفاهيم محوريّة، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.

- التعليم الديني بين التجديد والتجميد. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- نحو التجديد والاجتهاد، جزءان. القاهرة: دار تنوير، ٢٠٠٨.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- نحو موقف قرآني من النسخ. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- الجمع بين القراءتين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- مقدمة في إسلاميَّة المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- لا إكراه في الدين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقدمة في إسلامية المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقاصد الشريعة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- نحو منهجية معرفية قرآنية. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.